المدونة

بداية الخلق





د. رشيد الجراح

Certificate of Registration
CopyrightFrance

Copyright Registration Number: 9H2F1R2

CopyrightFrance.com, Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhe ring to any specific sect. The goal is to officially archive and le gally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.

Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :

✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.



3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

كلمة فريق عمل مدوّنة روح

الحمد لله الذي علّم الإنسان بالقلم، وخصّه بنعمة البيان، وجعل تدبّر كتابه العزيز سبيلًا للهداية.
أمّا بعد،

يمرّ الفكر الديني المعاصر بمنعطفٍ تاريخي يفرض إعادة تأسيس العلاقة مع النصّ المؤسِّس؛ فكثير من المفاهيم والمناهج قد ترسّخت عبر القرون حتى غدت في الوعي العام بمنزلة المسلّمات المطلقة. في خضمّ هذه الحاجة الملحة للمراجعة والتجديد، يأتي مشروع الأستاذ الدكتور رشيد سليم الجرّاح ليقدّم قراءةً مغايرة للقرآن الكريم، قراءةً لا تكتفي بحدود التفسير الموروث بل تتجاوزه نحو فهمٍ جديد يتأسّس على منهجٍ علميٍّ دقيق، يلامس روح النصّ بعمق ويقترب من منطق العقل والفطرة السليمة.

لعلّ في الاسم الذي يحمله الدكتور رشيد سليم الجرّاح إشارةً بالغة الدلالة؛ فهو بحقٍّ يُجري عمليةً جراحية للكلمة القرآنية. إنه يتعامل مع مفردات الوحي برُشدٍ متناهٍ، كأنّه يضعها تحت مجهر الفكر واللغة، فيُريك نسيجها العضوي، ويكشف عن أعصابها الصرفية وعروقها الدلالية، لتتجلّى بذلك أبعادها النفسية والمادية العميقة. هكذا تتحوّل الكلمة في مشروعه من مجرّد رمزٍ صوتي إلى كيانٍ حيٍّ نابضٍ بالمعنى، يحمل إمكانات التأويل التي تنتظر التحرير.

لقد كانت أبحاث الدكتور الجرّاح ومقالاته بمثابة أطروحات نوعية تميّزت بالعمق والجرأة الفكرية، فمثّلت دعوةً صريحةً لإعادة بناء علاقتنا التلقّائية بالوحي، لا على قاعدة التلقّي الجامد، بل على أساس الفهم المتدبّر والتحليل العلمي المحكم. وهي دعوةٌ ضرورية تُعيد إلى النصّ حيويته الجوهرية، وإلى الفكر الديني توازنه المنشود، وتُحيي مسؤولية الباحث في إعمال العقل وكسر حاجز السؤال الموقوف.

وانطلاقًا من قناعتنا الراسخة بأهمية هذا المشروع الريادي، وبضرورة حفظه وتوثيقه ليكون مرجعًا للباحثين والمهتمين، تضافرت جهود فريق المدوّنة. لقد قمنا بجمع هذه المقالات والدراسات المنشورة، ومن ثم تنظيمها وتصنيفها وتحريرها بعناية فائقة، لتصدر الآن في هذا العمل المتكامل الذي نضعه بكل تقدير بين يدي القارئ الكريم.

نحن نؤمن يقينًا بأنّ هذه الكتابات تمثّل إسهامًا محوريًا في مسار الفكر القرآني المعاصر، وأنها تفتح آفاقًا رحبة للتأمّل والمراجعة والتجديد، بما يليق بكتابٍ أنزله الله للعقل قبل التقليد، وللحياة قبل التاريخ.

إنّ هذا العمل ليس سوى نقطة انطلاق في مسارٍ نأمل أن يكون مستدامًا؛ وفاءً لصاحب هذا المشروع العلمي الرائد، وإيمانًا بما قدّمه من اجتهادٍ صادق ورؤيةٍ علمية مغايرة تستحقّ كل التقدير والاحتفاء.

فريق عمل مدوّنة الدكتور رشيد الجراح:

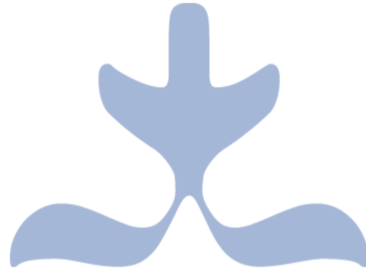
- المهندس **عامر محمد العوض، مهندس نظم المعلومات من مايكروسوفت.**
- المهندس **زكرياء مصباح، مهندس مدني.**
- الأستاذ **مصطفى عيسى، مصمم ديكور ومستشار في العقارات.**
- الأستاذ **محمد عادل الخولي، مستشار في العقارات.**
- الدكتور **يوسف فرمي، مهندس البحث والتطوير في الإلكترونيات الدقيقة والبصريات.**

للإتصال بالفريق : roohblog2025@gmail.com

الفهرس:

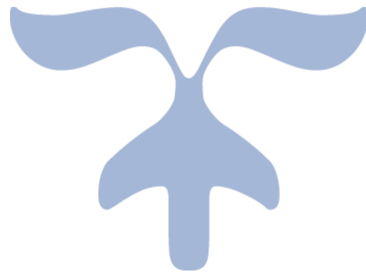
الفهرس

الفهرس



بداية الخلق

الجزء الأول



الجزء الأول: هل فعلاً وسوس إبليس لأدم؟

نتعرض في هذه المقالة إلى السؤال التالي: هل فعلاً وسوس إبليس لآدم؟

ونزعم الظن أن إبليس لم يوسوس لآدم إطلاقاً، وأن الذي فعلا وسوس لآدم وزوجه هو الشيطان، ليكون السؤال الجديد هو: ما الفرق بين إبليس والشيطان؟

أما بعد،

لعل من المناسب الحديث في هذا السياق أولاً عن الهبوط الذي حصل لآدم وزوجه.

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 36-38]
- ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤﴾ [الأعراف: 13-24]
- ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: 121-123]

لعل الآيات السابقة جميعها تؤكد على أنّ الله أمر الجميع بالانتقال بعد المعصية، ويظهر الانتقال في صورتين وهما الهبوط والخروج، فقد أمر الله إبليس بالهبوط والخروج:

- ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف: 13]

وقد أمر الله أدم وزوجه بالهبوط فقط:

- ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٢٤﴾ [الأعراف: 24]

ثم جاء الأمر الإلهي للجميع بالهبوط:

- ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 38]

ولعل المثير للانتباه أنّ الأمر الإلهي لإبليس بالهبوط والخروج جاء مباشرة عقاباً له على رفضه السجود لآدم بطلب من ربه ورب آدم:

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ١٣﴾ [البقرة: 11-13]

ثم يأتي بعد ذلك الأمر الإلهي لآدم وزوجه السكن في الجنة:

- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف: 19]

وما دام الحالة كذلك، فكيف إذاً بإبليس يستطيع الوصول لآدم؟ فآدم وزوجه يسكنون الآن الجنة وإبليس خارج مطرود منها، فهل يا ترى يستطيع إبليس دخول مكان طرده الله منه؟ وهل يستطيع حتى أنْ يتسلل إلى مكان حرّمه الله عليه (كما ترد القصة في كثير من أمهات كتب التفاسير)؟ فكيف حصلت إذاً الوسوسة؟ فهل يمكن أنْ تكون الوسوسة قد حصلت عن بعد؟ وإذا كان كذلك فهل يعني ذلك أنّ إبليس قد طرد فقط جسدياً من الجنة بينما لا زال يستطيع النفاذ إليها بطريقة غير جسديه؟

للإجابة على هذا التساؤل لابد من الإشارة أولاً إلى أنّ الطرد الإلهي لإبليس جاء لشخص إبليس بمفرده، والدليل على ذلك واضح في الآية نفسها، فقد جاء الخطاب موجهاً لإبليس وحده:

- ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف: 13]

ويعود إذاً السؤال الحتمي للبروز: كيف يمكن للوسوسة أنْ تتم وإبليس مطرود شر طرده من المكان الذي يتواجد به آدم وزوجه؟ ولا أخال القارىء يفترض استطاعة إبليس التسلل إلى المكان الذي طرد منه. ونستميح القارئ مرة أخرى العذر أنْ نقدم له تصورنا للموقف حتى وإن كان مخالفاً لما ألفه واعتاد عليه. إنّنا ندعي أنّ إبليس لم يوسوس لآدم قط! فلا يستطيع إبليس دخول الجنة (وهو المطرود منها) حتى يوسوس لآدم. وحتى لا ينعت القارئ الكريم هذه القراءة بالتخريف وحب الخروج عن المألوف فقط، نقدم له تصورنا للموضوع بالدليل الذي نظن أنه دامغ من القرآن الكريم.

أما بعد،

هناك ثلاث إشارات قرآنية يجب إثارتها والتنبيه لها حول هذه القضية وهي:

أولاً، يورد القرآن الكريم الأدلة الكثيرة في أنّ الذي رفض السجود لآدم هو إبليس، فلنستعرض أولاً جميع السياقات القرآنية التي تصور تلك الحادثة:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: 34]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: 11]
- ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: 30-33]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: 61]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: 50]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [طه: 116]
- ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [ص: 73-77]

ثانياً، تبين السياقات القرآنية أنّ أول من طُرد وأُخرج من المكان هو إبليس نفسه:

- ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٨﴾ [الأعراف: 13-18]
- ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر: 34-40]
- ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝٦٣ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤﴾ [الإسراء: 63-64]
- ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾ [ص: 77-78]

ثالثاً، لا يورد القرآن الكريم في أي سياق قرآني حصول أي تلاق بين إبليس وآدم بعد الأمر الإلهي لإبليس بالسجود.

وهذه الحقائق القرآنية تثير حفيظة القارئ لطرح السؤال الرئيس الذي نجهد في محاولتنا الإجابة عليه وهو: كيف إذاً حصلت الوسوسة؟

رأينا: نرد بالقول أنّ ذلك واضح بشكل لا لبس فيه بنص القرآن الكريم، فالقراءة المتأنية للموقف كما تصوره صورة الأعراف ربما تثبت صحة ما نذهب إليه وهو الظن باستحالة أن يكون إبليس هو من وسوس لآدم، فلقد ذكرنا آنفاً أنّ الله سبحانه قد أمر إبليس بالهبوط والخروج عقاباً له على رفضه الأمر الإلهي بالسجود لآدم، وبعدها مباشرة أمر آدم بالسكن وزوجه الجنة، ومن ثم تحصل الوسوسة وعصيان آدم ربه، فيأتي الأمر الإلهي للجميع بالهبوط، وهذا يعني بالمنظور السابق أنّ آدم وزجه قد أمرا بالهبوط مرة واحدة بينما أمر إبليس بالهبوط مرتين: مرة بعد رفضه السجود لآدم ومرة بعد وسوسته لآدم، ولنقرأ المشهد كله كما تصوره صورة الأعراف:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: 12-24]

فالسؤال يكون إذاً على النحو التالي: أين تلاقى إبليس مع آدم وزوجه حتى يوسوس لهما؟

افتراء من عند أنفسنا: إنّنا نزعم الظن أنّ إبليس لم يتلاق مع آدم وزوجه بعد الأمر الإلهي الأول لإبليس بالطرد والخروج (أي بعد رفض إبليس السجود لآدم)، ولهذا فإن الظن يميل عندنا إلى الاعتقاد اليقيني بأن إبليس لم يوسوس لآدم قط. وهذا بالضرورة يقودنا إلى السؤال الأكثر إثارة وهو: كيف إذاً حصلت الوسوسة؟

رأينا: إنّ القراءة المتأنية للمشهد تظهر أنّ القرآن الكريم جاء في غاية الدقة والروعة ليجيب على هذا التساؤل، فلنقرأ معاً الآية التي تحدثت عن الوسوسة كما وردت في سورة الأعراف التي تصور الموقف أجمل وأدق تصوير:

- ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 20]

لعل القارئ الكريم قد أدرك ما نجهد أنفسنا الوصول إليه وهو الافتراء التالي: إنّ الذي وسوس لآدم هو الشيطان (وليس إبليس). وقد يرد البعض على الفور بالقول وهل هناك فرق؟ نقول نعم بكل تأكيد، هناك فرق كبير بين إبليس والشيطان، وأول سؤال نوجهه للقارىء الكريم هو: إذا لم يكن هناك فرق فلماذا تحدث الله في بداية المشهد عن إبليس (في حالة السجود) ثم تغير اللفظ للشيطان (في حالة الوسوسة)؟ وبكلمات أخرى إذا لم يكن هناك فرق: لماذا لَمْ يقل الله سبحانه "فوسوس لهما إبليس" مثلاً بدلاً من "فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ"؟

أما الدليل الذي نظن أنه دامغ في هذه الجزئية يأتي من تدبر جميع السياقات القرآنية التي تتحدث عن السجود وتلك التي تتحدث عن الوسوسة، ولكن كيف؟

جواب: إن تدبر جميع الآيات التي ورد فيها الطلب الإلهي للملائكة السجود لآدم تبين بشكل لا لبس فيه أنّ الذي رفض السجود هو إبليس وليس الشيطان، فلا يرد ذكر الشيطان عند الحديث عن السجود الأول إطلاقاً، ونحن نجزم الاعتقاد أنّ ذلك لم يكن من قبيل المصادفة، فلقد صُوّر ذلك المشهد سبع مرات في القرآن الكريم، ولنورد هذه الآيات مرة أخرى ونترك للقارئ الكريم مهمة تدبر اللفظ الوارد فيها:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 34]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١﴾ [الأعراف: 11]
- ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ٣٣﴾ [الحجر: 31-33]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ٦١﴾ [الإسراء: 61]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ٥٠﴾ [الكهف: 50]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ١١٦﴾ [طه: 116]
- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٤ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ٧٥﴾ [ص: 71-75]

وبالمقابل لا يأتي ذكر إبليس في محض الحديث عن الوسوسة للإنسان (سواء لآدم أو لذريته) إطلاقاً، وإنما يأتي على الدوام ذكر الشيطان، ولأنّ الوسوسة وردت عشرات المرات في كتاب الله وقد جاءت جميعها لتصور أن الذي يقوم بفعل الوسوسة هو الشيطان (وليس إبليس) فلا يمكننا اعتبار ذلك مصادفة، فلنقرأ جميع السياقات القرآنية التي تتحدث عن الوسوسة كما ترد في كتاب الله:

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٣٦﴾ [البقرة: 36]
- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]
- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]
- ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠﴾ [طه: 120]

سؤال: هل هناك فرق بين إبليس والشيطان؟

جواب: نعم

الدليل

ورد ذكر الشيطان في كتاب الله على صيغة المفرد "شيطان" والجمع "شياطين"، بينما لم ترد صيغة الجمع لكلمة إبليس على الإطلاق:

- ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾ [البقرة: 102]
- ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنعام: 71]
- ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام: 121]
- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]

- ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: 30]
- ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: 27]
- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ [مريم: 68]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: 83]
- ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنبياء: 82]
- ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ [المؤمنون: 97]
- ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ [الشعراء: 210]
- ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ [الشعراء: 221]
- ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات: 65]
- ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ [ص: 37]

نتيجة مفتراة: هناك إبليس واحد ولكن هناك شياطين كثير

وهذا يعنى أنّه مادام هناك كم كبير من الشياطين بينما هناك إبليس واحد، فأنّ النتيجة الحتمية تكون على النحو التالي: إبليس هو أحد الشياطين بينما لا يمكن أن يكون كل شيطان هو إبليس (خصوصاً إذا ما علمنا أن القرآن الكريم يتحدث عن شياطين الجن والإنس). لذا نحن نعتقد جازمين أن إبليس قد يكون هو نفسه زعيم الشياطين أجمعين، ومصداق ذلك قوله تعالى:

- ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: 64]
- ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الشعراء: 95]

سؤال: فمن هم إذاً جنود إبليس؟

جواب: أنهم شياطين الإنس والجن

رابعاً، إنّ هذا الاستنتاج تدعمه آية كريمة في سورة الكهف تبين لنا نسب إبليس:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف: 50]

نتيجة: نخلص إذاً إلى القول أنّ إبليس هو من جنس الجن الذي كان موجودا في المكان قبل وجود آدم أصلاً، قال تعالى:

- ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر: 27]

ولكن لم يأتي الأمر الإلهي الأول بالهبوط والخروج إلا لشخص واحد وهو إبليس كونه اعترض علانيةً على حكمة الله في تعليم آدم وطلبه من الملائكة السجود للمخلوق الجديد:

- ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣﴾ [الأعراف: 13]

فالدقة تستدعي الانتباه إلى أنه في الوقت الذي طرد الله فيه إبليس من المكان بقي في الجنة من الجن الكثير كونهم أصلاً موجودون هناك، ولعلنا نجزم أنّ مثل هذا الفهم ربما يحل تناقضاً ظاهريا في فهم قصة آدم، وملخص ذلك التناقض هو كيفية حصول التلاقي بين آدم الذي يقطن الجنة الآن وإبليس المطرود منها. فهل يستطيع إبليس أنْ ينفذ إلى المكان الذي حرمه الله عليه؟! لقد خرج إبليس من الجنة وهو قطعاً لا يستطيع دخولها (حتى خلسة أو في فم أفعى!!!)، فكيف إذاً استطاع النفاذ إلى آدم ليوسوس له؟

رأينا: إنّ الجواب الذي نقدمه هو أنّ إبليس بشخصه لم يوسوس لآدم فهو لا يمكن أنْ ينفذ إليه وهو في مكان محرّم عليه دخوله بأمر إلهي، والذي وسوس لآدم هو الشيطان كما تنص الآيات الكريمة جميعها بصريح اللفظ، والشيطان الذي وسوس لآدم هو بلا شك أحد جنود إبليس الذين لم يكن الأمر الإلهي قد صدر لهم بعد بالهبوط، ولعل اللفظ القرآني يسعفنا لنفهم كيف هبط إبليس أولا، ثم جاء بعد ذلك الامر الإلهي لآدم وزوجه بالهبوط وكذلك لجنس الشياطين جميعاً (أي الجن):

- ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣﴾ [الأعراف: 13]
- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨﴾ [البقرة: 36-38]
- ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٢٤﴾ [الأعراف: 24]

- ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: 123]

فالقارئ (حتى العادي من مثلي) يلحظ ورود لفظ الهبوط على صيغة المفرد (فَٱهۡبِطۡ) والمثنى (ٱهۡبِطَا) والجمع (ٱهۡبِطُواْ)، ولعلنا جميعاً لا نختلف أنّ لفظ الهبوط المفرد قد جاء موجهاً لشخص إبليس، ولكن الصعوبة تكمن في فهم اللفظ على صيغتي الجمع والمثنى، فكثيراً ما فهم أنّ الهبوط بصيغة الجمع جاء موجها لآدم وزوجه، والعداوة المقصودة هي لذريتهم من بعدهم، ولكن الصعوبة الأكبر تكمن في سورة طه حيث جاء اللفظ على صيغة المثنى، وقد يرد البعض على الفور أنّ ذلك سهل، فالخطاب موجهاً لآدم وزوجه وهما إثنان، فنقول أنّ الأمر ليس بتلك البساطه فهذا الطرح تنقضه مفردات الآية نفسها، ولكن كيف؟

أولا، إنْ كان الأمر كذلك فلِمَ ترد لفظة "جميعا" (قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ)؟ فهل عندما تخاطب شخصين اثنين تحتاج أنْ تقول لهما "أنتما جميعاً"؟ إنّ هذا استخدام نظن أنه غير مستساغ في العربية.

ثانياً، والأهم من ذلك أنّ الآية تتحدث عن العداوة بين الهابطين (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ)، فهل هناك – نحن نسأل- عداوة ناشئة أو ستنشأ بين آدم حواء (إن كان الخطاب بصيغة المثنى قد قصد به آدم وزوجه)؟ إنّ هذا أغرب ما يذهب إليه التفكير، فليس هناك إطلاقاً عداوة بين آدم وحواء حتى يمكننا أن نزعم بأن صيغة المثنى قد جاءت لتدل على آدم وزوجه، لذا ربما نستطيع أن نخلص إلى القول أنّ الله قد قضى بالعداوة بين الهابطين ولا يمكن أنْ تُحمَل تلك العداوة على أنها بين آدم وحواء، والخطاب ليس موجهاً لآدم من جهه وإبليس من جهة أخرى وذلك لأن الأمر بالخروج والهبوط قد صدر لإبليس من ذي قبل:

- ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف: 13]

ولكن إذا أقررنا أنّ الذي أوقع آدم في المعصية هو الشيطان (وليس إبليس)، ربما يسهل عندئذ فهم الخطاب الموجه في سورة طه بصيغة المثنى (قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ) ، ولعل من الضروري أيضاً قراءة آية أخرى ورد فيها ذكر العداوة لتبين ماهية العداوة التي تذكر في معرض الحيث عن الهبوط:

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 36-38]

وبناءً على ذلك، ربما يمكننا أن نزعم القول أنّ الأمر بالهبوط قد جاء أولا موجهاً لشخص إبليس، ثم جاء بعد ذلك الأمر بالهبوط ليس فقط لآدم وزوجه وإنما لمن كان في تلك الجنة معهم وهم جنس الجن (ومنهم الشياطين)، لذا لم يكن الخطاب – نحن نفتري الظن- بالمثنى في سورة طه (قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) لم يكن موجها لشخصين (كآدم وحواء أو أدم وإبليس أو حتى أدم وحواء من جهة وإبليس من جهة أخرى) وإنما لجنسين وهما الجن من جهه (ممثلاً بالشياطين) والإنس من جهة أخرى (ممثلاً بآدم وحواء)، وبهذا الفهم ربما يمكننا تبرير وجود لفظة " جَمِيعًۢا " وكذلك عبارة " بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ" في السياق القرآني نفسه. فنحن نظن أن مفردة "جميعاً" تعني كل من كان يقطن الجنة التي كان يسكنها آدم وزوجه آنذاك، ونحن نظن أيضاً أن عبارة " بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ" تعني العداوة ليس فقط بين أبناء الجنس الواحد وإنما بين أفراد الجنسين. وندعوا القارىء الكريم إلى تدبر صيغة المثنى في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت: 29]

وسنستفيد من مثل هذا الفهم – في مقالات لاحقة بحول الله وتوفيقه- لإثبات زعم من عند أنفسنا بأنّ تلك الجنة التي كان يسكنها آدم ليست هي جنة الخلد. ولعل هذا الطرح يفيد في جانب آخر وهو: كيف حصل وجود الجن (وجنس الشياطين) على الأرض ما دام أنّ المقصود بالخطاب هو آدم وزوجه؟ فلم هناك جن على الأرض مادام أن الأرض قد كانت لخلافة الإنسان؟

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: 29]

سؤال: كيف حصل أن تواجد الجن (بما فيهم الشياطين) على الأرض؟ من أين جاءوا؟

لعل الفكر السائد يظن أنَ الجن (بما فيهم الشياطين) الموجودون على الأرض هم من ذرية إبليس، ولكننا نحتج على ذلك الفهم للأسباب التالية:

أولاً، إنّ ذلك غير ممكن لأن إبلس كان يملك جنود له حتى قبل هبوطه إلى الأرض، قال تعالى:

- ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: 64]

وربما يفسر هذا الزعم سبب رفض إبليس السجود لآدم عندما أمره الله بذلك، فابليس يحتج على أنْ يكون هذا المخلوق الجديد (وذريته بالطبع) خليفة الله بينما يُحْرَم إبليس (وجنس الجن) هذا الشرف وهم المخلوقين حتى قبل آدم:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: 26-27]

ثانياً، نحن نؤمن باستحالة أنْ يلد إبليس نفسه إلا العصاة، فمن المستحيل أنْ يخرج من ذلك الشر خير، فكيف إذاً يمكن أن نفهم أنّ هناك من الجن من هو مؤمن، فليس جميع الجن – بنص القرآن نفسه- من الكافرين، فلندقق بما جاء في سورة الجن نفسها وكيف قسم الجن أنفسهم:

- ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ [الجن: 14]

فالسؤال الذي ربما غفل عنه الكثيرون هو، من أين جاءت الذرية المؤمنة من الجن؟

- ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: 39]
- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56]

إنّنا نظن أنّ طرحنا هذا ربما يقدم تفسيراً لهذا التساؤل وهو أنّ الأمر بالهبوط جاء من الله للجنسين للإنس (ممثلاً بآدم وزوجه) وللجن (ممثلاً بالعصاة منهم والمؤمنين)، وهذا قد يفسر وجود الجن المؤمن الذين ليسوا من ذرية إبليس نفسه:

- ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: 1-2]
- ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: 11-15]

لأنّ ذرية آبليس هم –بنص القرآن- أعداء لآدم وذريته:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: 50]

وهذا الطرح يقد يفسر المقصود بالآية القرانية التالية:

- ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ [الجن: 4]

فمن هو إذاً سفيه الجن؟ إنّه - بلا شك عندنا- إبليس نفسه، فهو القائد الذي أضلهم عن جادة الصواب.

وربما يفسر مثل هذا الطرح أين كان الجن يسكن قبل هبوط آدم إلى الأرض، فنحن نعلم بنص القرآن أنّ الجن قد خلق قبل آدم، وقد أوردنا سابقاً قوله تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر: 26-27]

وعندما أمر الله سبحانه آدم بالسكن في الجنة حذره من فتنة الشيطان (وليس إبليس):

- ﴿... أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢﴾ [الأعراف: 22]

والسؤال الذي لابد من طرحه هنا هو: لماذا حذر الله آدم من فتنة الشيطان إذا كان آدم يسكن الجنة وحده وإبليس (كما نعلم) مطرود شر طرده إلى غير ذلك المكان لحظة أنْ رفض السجود لآدم؟ قال تعالى:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢﴾ [الأعراف: 22]

نستنتج إذاً أنّ ذلك المكان الذي سكنه آدم وزوجه (الجنة) قبل هبوطهما كان مسكوناً من غيرهم وهم جنس الجن، وعندما جاء الأمر بالهبوط جاء على نحو:

- ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣﴾ [طه: 123]

أما الأمر الإلهي لآدم بالسكن في الجنة فلم يكن –نحن نفتري القول- على سبيل الدوام وإنما على سبيل التحضير له لخلافة الأرض، فالله سبحانه قد خلق آدم أصلا لخلافة الأرض، فلا يمكن أنْ يقضي الله الأمر بذلك ثم يطلب من آدم السكن في الجنة وللأبد، فمسألة الانتقال إلى الأرض كان أمراً محتوما، فسواءً وقع أدم في المعصية أو لم يقع كان لابد من صدور الأمر الإلهي بالإنتقال إلى الأرض، ومصداق ذلك ما كان الله سبحانه قد أخبر به الملائكة حتى قبل تعليم آدم:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: 30-31]

فمن يظن أنَ آدم قد تقرر نزوله إلى الأرض بسبب المعصية يقع في الخطأ لأنّ ذلك قد تقرر قبل حدوث الأمر برمته، والجديد فيما نقول هو الافتراض أنّه حتى لو لم يقع آدم وزوجه في المعصية لجاء الامر الإلهي لآدم وزوجه بالإنتقال إلى الأرض، فطلب الله من آدم السكن في الجنة لم يكن خدعة أو اختباراً لآدم، بل كان أمراً بالسكن لفترة تمهيداً لانتقاله إلى الأرض التي أعدها الله مسبقاً للحياة البشرية:

- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: 29]

فهل لو لم يرتكب آدم المعصية، كان سيبقى ساكناً الجنة وللأبد؟

جواب: كلا وألف كلا، فالآية القرآنية التي تبين الأمر الإلهي لآدم بالسكن وزوجه لا تشير على الإطلاق إلى السكن الأبدي في الجنة:

- ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: 35]

والتناقض الأول الذي قد يمر في أذهاننا هو إذاً كيفية التوافق بين الآيات الكريمات التالية:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]
- ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: 35]

أي، كيف يمكن أنْ نفهم أنّ الله سبحانه قد قضى بخلافة آدم للارض وفي الوقت نفسه نقتنع أنّ الله قد أسكن آدم الجنة وللأبد؟

أما التناقض الظاهر الآخر فهو ما يمكن أن يفهم خطأً من منطوق الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]
- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٣٦﴾ [البقرة: 36]
- ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]

أي، كيف يمكن أنْ نفهم أنّ الله قد قضى بخلافة آدم للارض ومن ثم أسكنه الجنة وللأبد وفي الوقت ذاته نؤمن أنّ الذي أخرج آدم من الجنة هو الشيطان الذي أوقعه في المعصية؟

لعل القارىء الكريم يدرك أنّ هذه أمور فلتت من شبكة خيوط العلماء الذي سعوا عبر قرون من الزمن تقديم تفسيرات لا تناقض بعضها بعضا. ولعلي أجزم أنّ الحاجة ملحة لإلقاء ظلال الشك على مسلمات قديمة، والنظر إلى الامور من زاوية أخرى حتى نستطيع إزالة ما يبدو للوهلة الأولى أنّه تناقض. وسأحاول أن أقدم فهمنا لتلك الحادثة في السطور التالية:

أما بعد،

أولاً، لا بد من الإشارة مرة أخرى إلى الاعتقاد الذي مفاده أنّ الأمر الإلهي لآدم بالسكن في الجنة لا يحمل على أنّه أمر بالسكن الأبدي وذلك لأنّ الله سبحانه قد قضى بخلافة آدم الأرض قبل سكنه الجنة. فخروج آدم من الجنة لم يكن بسبب المعصية على الإطلاق، والقارىء المتدبر للقرآن يدرك ذلك بكل يسر وسهولة، فالله سبحانه عندما أسكن آدم وزوجه الجنة لم يمنعهم عن الشجرة إلاّ لسبب واحد وهو حتى لا يكونا من الظالمين، قال تعالى:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]

ومراد القول أنّ الأكل من الشجرة لم تكن محصلته إلاّ الظلم وليس الخروج أو الهبوط، وإلاّ لجاء الخطاب الرباني على نحو:

"فتكونا من المطرودين" ، "فتكونا من المخرجين" ، "فتكونا من الهابطين"، ونحوه.

فالأكل من الشجرة لا يترتب عليه –حسب نص الآية الكريمة- إلا الظلم (فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ).

تساؤلات: هل يمكن أنْ يفسر الظلم على أنّه الخروج من الجنة؟ فهل إنْ ظلم الإنسان أو وقع في الظلم يترتب عليه الخروج من الجنة؟

إنّ الجواب بكل تأكيد لا، خصوصاً إذا كان من وقع في الظلم قد تاب إلى ربه وأقرَّ بخطاءه، فآدم قد أقر بخطاءه وعاد إلى ربه وقبلت توبته:

- ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: 37]

فكيف يمكن إذاً تفسير حقيقة أنّ الله قد تاب على آدم ولكنه أخرجه من الجنة؟ فهل هي إذاً توبة مشروطة؟ فهل ذلك يفهم على أنّ الله قبل توبة آدم شريطة خروجه من الجنة؟ معاذا الله، فتوبة الله على العبد الصادق لا تكون مشروطة، فها هو موسى عليه السلام يقع في الظلم ولكن الله يقبل توبته ويغفر له:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: 16]

وذاك ذو النون يظلم نفسه ويعود إلى ربه:

- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء: 87-88]

فلِمَ يتقبل الفكر الإسلامي أنْ تكون توبة الله على موسى ومن قبله ذي النون غير مشروطة، بينما تكون على غير تلك الشاكلة في حالة آدم وزوجه.



بداية الخلق

الجزء الثاني



الجزء الثاني: هل فعلاً كذب الشيطان على آدم؟ ج1

زعمنا في مقالة سابقة لنا تحت عنوان "هل فعلاً وسوس إبليس لآدم؟" القول بأن الذي وسوس لآدم هو الشيطان وليس إبليس، وحاولنا التمييز بين إبليس (كزعيم للجن بما فيهم الشياطين) والشيطان الذي وسوس لآدم على أنه واحد من جنود إبليس الذي كان يستفزز من يستطيع منهم على آدم وذريته:

- ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾ [الإسراء: 64]

وكان ذلك بهدف تبرير عدم التلاق بين آدم وزوجه وهم يقطنون الجنة وإبليس الذي كان قد طرد من المكان قبل أن يصدر الأمر الإلهي لآدم وزوجه بالسكن في الجنة:

- ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف: 18-19]

فتدبر هذه الآيات الكريمة يوصلنا إلى الاعتقاد اليقيني أن إبليس لم يكن ليستطيع الوصول لآدم وزوجه في الجنة مادام أنه قد طرد من المكان شر طردة. وزعمنا الظن في تلك المقالة أن إبليس قد استخدم جنده للإيقاع بآدم، فكان الشيطان الذي وسوس لآدم هو أحد جنود إبليس الذين استخدمهم للإيقاع بآدم وزوجه، فإبليس – كما نعلم من النص القرآني- كان قد أخذ على نفسه عهداً بالإيقاع بآدم وذريته في شراكه حيث قال:

- ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾ [الأعراف: 14-16]

ولم يتوقف عند هذا الحد بل أقسم في سياق قرآني آخر بعزة الله نفسه ليغوينهم أجمعين إلا عباد الله المخلصين:

- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص: 79-83]

وهنا نتوقف في هذه المقالة عند إشكالية مهمة جداً في خطاب إبليس مع ربه بخصوص الإيقاع بآدم وذريته وهو قول إبليس كما جاء في الآية الكريمة التالي:

- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾ [الأعراف: 16]

والإشكالية هي – في نظرنا- من شقين وهما:

1. أن ينسب إبليس فعل الغواية الذي وقع فيه إلى ربه (قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي)

2. قول إبليس " لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ "

لنطرح عندها التساؤلين التاليين:

⇐ لماذا نسب إبليس فعل الغواية إلى ربه؟
⇐ كيف يمكن أن يقعد إبليس لآدم وذريته صراط الله المستقيم؟

لنبدأ النقاش بمحاولتنا الإجابة على التساؤل الثاني ظانين أن الإجابة على هذا التساؤل ربما تفضي بنا إلى الحديث عن التساؤل الأول الذي يخص فعل الغواية.

أما بعد،

كيف يقعد لنا إبليس صراط الله المستقيم؟ ألا نقرأ في فاتحة الكتاب قول الحق ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6] ؟ فكيف إذن نطلب من الله أن يهدينا الصراط المستقيم لنجد عنده إبليس هو من يقعد لنا هناك (لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ)؟ ثم ألم نقرأ قول الحق في الآية الكريمة التالية؟

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩﴾ [الأنعام: 39]

ألا يكون إذن من هو موجود على الصراط المستقيم من أهل الهداية؟ فهل إبليس "عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"؟

رأينا: كلا، وألف كلا. إبليس ليس " عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ " ولكنه قاعد للناس صراط الله المستقيم " لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ "؟

وهنا يبرز سؤال كبير ينبغي على أهل العلم والدراية أن يتصدوا للإجابة عليه وهو: ما الفرق بين أن يكون إبليس " عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ" أو أن يقعد للناس صراط الله المستقيم (لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ)؟

رأينا: نحن نظن أن هذا سؤال كبير جداً ستكون له تبعات جمة في الفكر الديني الذي سنحاول التعرض له في الصفحات التالية.

أما بعد،

سندخل النقاش في هذا الموضوع طارحين السؤال الغريب التالي: هل فعلاً كذب الشيطان على آدم وزوجه عندما قاسمهما أنه لهما من الناصحين؟

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: 20-21]

غالباً ما فهم العامة (من مثلي) أن الشيطان عندما وسوس لآدم وزوجه كان قد كذب عليهما، فالناس عامة مدفوعين بالاعتقاد أن الشيطان يكذب على الإنسان، وأنه يمكن أن يعمل أي شيء من أجل الإيقاع بآدم وذريته، فهم بذلك يصورون الشيطان ويكأنه "شخص" (أو لنقل كينونة) لا مبدأ له، ونحن إذ لا ندري من أين جاء مثل هذا الاعتقاد لنستميح السادة القراء العذر أن نخالفهم مثل هذا المعتقد، ظانين في الوقت ذاته أن الشيطان صاحب مبدأ يدافع عنه، ومن أبسط المبادئ التي يتمسك بها الشيطان هو –في رأينا- عدم الكذب، فنحن لم نجد دليلاً واحداً في كتاب الله يبين أن الشيطان يمكن أن يكذب على الناس، فالشيطان – في نظرنا- لا يقول إلا الصدق، وهذا الاعتقاد هو ما نظن أنه يمكننا من فهم قول إبليس (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ).

افتراء شيطاني من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الشيطان لا يكذب.

ولكن أين الدليل؟

أولاً، لابد من التنبيه أن الشيطان عندما وسوس لآدم وزوجه ذكّرهما بالنهي الرباني الذي صدر لهما من ربهما:

- وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ

لذا لا يمكن القول بأن آدم قد أكل من الشجرة وهو ناسياً الأمر الإلهي له بعدم الاقتراب منها. فإن كان هو قد نسي الأمر بعدم الأكل من الشجرة، فها هو الشيطان يذكره وزوجه بذلك.

ثانياً: قدّم الشيطان لآدم وزوجه السبب وراء ذلك النهي الرباني:

- وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ

ثالثاً، أقسم الشيطان لآدم وزوجه بذلك:

- وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ

السؤال: فـ بمن أقسم الشيطان لآدم وزوجه؟

رأينا: لقد أقسم الشيطان لآدم وزوجه بالله، فلا يمكن أن ننسى كيف جرى الخطاب بين الله من جهة وإبليس من جهة أخرى:

- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: 82]

نتيجة مفتراة: نحن نظن باستحالة أن يقسم الشيطان بغير ربه (الله)، فإبليس لم ينكر ربوبية الله له حتى بعد أن طرده الله من الجنة:

- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: 79-83]

افتراء من عند أنفسنا: عندما يقسم الشيطان -لا شك عندنا- فإنه يقسم بربه (الله)، لذا يستحيل أن يتحدث إبليس (وبالتالي الشيطان) وأن يقسم بربه كاذبا. فإبليس الذي يعلم من هو ربه يستحيل – نحن نفتري القول- أن يقسم به كاذباً.

رابعاً، أما الدليل الأكبر الذي نظن أنه يدعم زعمنا هذا فيأتي من الحقيقة القرآنية التالية: عندما وسوس الشيطان لآدم وزوجه في الجنة وقدّم لهم السبب الذي من أجله نهاهم الله عن الأكل من الشجرة لم يأتي خبر من الله أن الشيطان قد كذبهم القول. ولكن جل الذي حصل أن الله أكد عداوة الشيطان المستحكمة تجاه آدم وزوجه:

- ﴿... وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: 22]

فالله يذكر آدم وزوجه بعداوة الشيطان لهما ولكنه لا يخبرنا بأن الشيطان كان قد كذبهما القول.

سؤال: مادام أن الشيطان –كما نزعم- لم يكذب عليهما، فما الذي فعله إذن؟

جواب: لقد أغواهم

- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: 82]

نعم، ذلك هو ما فعله الشيطان إنه الغواية وليس الكذب.

سؤال: ولكن ما الفرق؟

جواب: هناك فرق كبير جداً بين أن تقوم بفعل الغواية أو أن تقوم بفعل الكذب

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن أن الذي يقوم بفعل الغواية لا يحتاج أن يكذب، فهو يقول الصدق ولكن فقط من أجل الإيقاع في الشرك، ولتكون العاقبة وخيمة. أما من يقوم بالكذب فهو يحرفّ الحقيقة لأنه ببساطة يقول غيرها.

مثال: يمكن أن أنقل إليك خبراً ما كأن أقول لك إنْ ذهبت إلى المكان الفلاني ستجد فيه مبلغاً من المال وأكون صادقاً فيما أقول لك، ولكن لا أخبرك في الوقت ذاته أن في ذهابك إلى ذلك المكان وحصولك على المال الموجود هناك فيه مهلكة لك، كأن ينتهي بك المقام في السجن بسبب ذلك، لأن المال الموجود هناك –على سبيل المثال- هو مال مسروق تبحث الشرطة عنه. فأنا عندما أقوم بذلك يكون ذلك من باب الغواية، فأنا أخبرك صادقاً بوجود المال، ولكن هدفي هو الإيقاع بك، فهنا أكون أنا من يقوم بفعل الغواية.

ولكن – بالمقابل- لو أنا نقلت لك خبراً أن في ذلك المكان ستجد المال إنْ أنت ذهبت إليه، وقمت أنت فعلاً بالذهاب إلى المكان ولم تجد فيه المال الذي أخبرتك عنه، فأكون أنا بذلك قد كذبت عليك.

فما الذي فعله الشيطان مع آدم؟ هل أغواه أم كذب عليه؟

رأينا: نحن نعتقد أن الشيطان قد أغوى آدم ولكنه لم يكذب عليه:

- ﴿... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

ولهذا الفهم تبعات جمة نتحدث عنها فيما يتعلق بقصة الشيطان مع آدم وزوجه. ويؤكد هذا الظن ما جاء في كتاب الله عن فعل الشيطان الذي يقوم به للإيقاع ببني آدم في شركه:

- ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾ [الإسراء: 64]

فالشيطان – في رأينا- لا يكذب على الناس ولكنه يغرر بهم (وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا).

تبعات هذا الظن: نحن نفتري القول أن ما قام به الشيطان لم يكن أكثر من أنه زيّن لآدم وزوجه الحقيقة وكان ذلك من أجل الإيقاع بهما في شركه، ولكن كيف؟

رأينا: إننا نزعم الظن أن الشيطان قدّم الحقيقة التالية لآدم وزوجه:

- ﴿...وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]

ولكن الهدف الذي كان يرمي إليه الشيطان هو أن تبد لهما سوآتهما:

- ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

فكانت تلك فتنة الشيطان لكي ينزع عنهما لباسهما لتبدو لهما سوآتهما ويكون الهدف النهائي هو أن يخرجهما من الجنة التي كانا يسكنان فيها:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: 27]

إن المتدبر لهذه السياقات القرآنية يجد أن ما قام به الشيطان هو عبارة عن فعل الغواية نتج عن فتنة أظهرت ما كان يحمل آدم في قلبه.

نتيجة وافتراء من عند أنفسنا: لو تدبرنا هذه السياقات القرآنية لوجدنا فيها فعل الغواية وفعل الفتنة، ونحن نفتري الظن أن الذي يغوي الآخرين لا يحتاج أن يكذب عليهم وأن الذي يقوم بفعل الفتنة لا يمكن أن يكذب، ولكن أين الدليل على ذلك؟

الغواية

لو تدبرنا قول إبليس لربه بعد أن طرده الله من المكان لوجدنا أن إبليس ينسب فعل الغواية إلى ربه:

- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: 16]
- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر: 39]

دقق – عزيزي القارئ- جيداً بما قاله إبليس، فهو ينسب فعل الغواية إلى رب العالمين (فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي)، ولا نجد في الوقت ذاته أن الله ينكر على إبليس قوله هذا. ولمّا كان الله قد أقر بأن ينسب إبليس فعل الغواية إلى ربه فيستحيل إذن أن يكون في فعل الغواية جانب الكذب، فنحن نحمل في صدورنا العقيدة التي مفادها أن الحق لا يصدر عنه إلا قول الحق. وقد يظن البعض أن هذا المنطق قد لا ينسحب على الشيطان، وأننا ربما لا نكون ملزمين "بتصديق" القول مادام أنه قد صدر من إبليس نفسه، فنرد على من يظن مثل ذلك بأن نسبة فعل الغواية لله قد جاءت على لسان نبي الله نوح نفسه:

- ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: 34]

لذا نحن نعتقد أن إبليس قد وقع في فعل الغواية بالرغم أن الله قد قدّم له الصدق، ولما كان إبليس يعلم تمام العلم أن الله قد قدّم له الصدق، وقع في فعل الغواية عندما اختار بنفسه أن يحيد عن طريق

الحق، فالغواية – في نظرنا- تطلق على من يقع بالمعصية بعد أن يكون قد جاءه العلم بها، وليس أدل على ذلك مما فعل آدم نفسه:

- ﴿... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

رأينا: نحن نظن أن الغواية هي نتيجة المعصية بعد العلم، فالله قدّم لآدم العلم "بأن لا يأكل من الشجرة" ولكن آدم يقرر أن يقع في المعصية، فيكون إذن قد غوى.

الفتنة

أما الفتنة فهي – في نظرنا- ما يسبق المعصية التي تتبعها الغواية، فتكون الصورة على النحو التالي:

فتنة ← معصية ← غواية

فالفتنة تسبق المعصية، بينما الغواية تتبع المعصية، وبكلمات أكثر دقة يمكن أن نفتري القول أن الفتنة دافع المعصية أما الغواية فهي نتيجة المعصية.

ولو تدبرنا قول الحق بخصوص تلك الحادثة لوجدنا أن الله نفسه يعتبرها فتنة الشيطان:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]

ولو تدبرنا فعل الفتنة في جميع السياقات القرآنية لوجدنا أن فعل الفتنة يمكن أن يصدر عن الله نفسه:

- ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: 3]

نتيجة مفتراة: مادام أن فعل الفتنة يمكن أن يصدر من الله نفسه فيستحيل أن يكون فيه الكذب

نتيجة كبيرة جداً: مادام أن الشيطان قد قام بفعل الغواية وفعل الفتنة، فهو إذن لم يكن يكذب عندما قاسم آدم وزوجه بأنه لهما من الناصحين، وبالتالي فإننا نعتقد جازمين أن إبليس قد صدق آدم وزوجه القول عندما قدّم لهما السبب الذي من أجله نهاهما ربهما عن الأكل من الشجرة:

- ﴿... وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]

نعم، هذا ما نظن أنه السبب الذي من أجله منع الله آدم وزوجه من الأكل من الشجرة: حتى لا يكونا ملكين أو حتى لا يكونا من الخالدين

ما الذي تقول يا رجل؟ اتق الله! ألا ترى أنك تردد قول إبليس؟ فهل فعلاً تختلف في ذلك عن إبليس نفسه؟

جواب: ربما ليس كثيراً، ولكن جل ما نطلب هو أن نعطي أنفسنا فرصة التدبر بمثل هذا الظن لنرى ما يمكن أن تؤول إليه الأمور في نهاية المطاف.

أما بعد،

سؤال: لماذا نهى الله آدم وزوجه عن الأكل من الشجرة؟

رأينا: لكي لا يكونا ملكين أو لكي لا يكونا من الخالدين

ولكن كيف؟

رأينا: نحن نظن أن مهمة الشيطان لا تكمن في أن يكذب على الناس ولكن مهمته تكمن في تزيين الأمور لهم أو التغرير بهم:

- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩﴾ [الحجر: 39]
- ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾ [النساء: 120]

فإبليس يقدم للناس الصدق ولكن من أجل أن يوقع بهم في الغواية، فالغواية التي يقع فيها الناس تأتي لحظة أن يتقبلوا ما زين لهم الشيطان من الأمور، وبمثل هذا المنطق - على ركاكته- يمكننا الآن أن ننطلق لنفهم قصة آدم مع الشيطان بطريقة مختلفة بعض الشيء.

قصة الشيطان مع آدم وزوجه: رؤية مختلفة

أما بعد،

أولاً، الشيطان يقدم لآدم القول الصادق الذي من أجله منعهما ربهما من الأكل من الشجرة (أو حتى الاقتراب منها):

- ﴿...وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]

ثانياً، لا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل يقوم بتزيّن الأمر لآدم وزوجه بما ستؤول إليه الأمور، فتكون تلك الحادثة فتنة لآدم وزوجه، تستوجب من آدم وزوجه أن يحسما أمرهما: إما بالانصياع للأمر الرباني

بعدم الاقتراب من الشجرة، أو بتقبل فتنة الشيطان والوقوع في المعصية، فيختار آدم وزوجه ما زين لهما الشيطان من الأمر فيقع آدم في المعصية وبالتالي في الغواية:

- ﴿... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

عودة على بدء

نحن نفتري الظن أنه بمثل هذا الزعم يمكننا أن نفهم كيف يقعد الشيطان لنا صراط الله المستقيم بطريقة جديدة:

- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾ [الأعراف: 16]

فالشيطان يقدم لك الحقيقة ولكنه لا يتوقف عند ذلك بل يقوم بتزينها لك ليحقق غايته بأن تكون النتيجة أن تقع في المعصية.

سؤال: ما فائدة مثل هذا الفهم؟

جواب: نحن نفتري الظن بأن المعصية التي تقع بسبب القول الصادق الذي تم تزينه من أجل عاقبة وخيمة تكون من فعل الشيطان (شياطين الإنس والجن) ومصداق ظننا هذا قوله تعالى:

- ﴿... شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ ... ١١٢﴾ [الأنعام: 112]

كما في الأفعال التالية التي يزينها الشيطان للناس:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة: 90]
- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ١٥﴾ [القصص: 15]

فالرجل الذي استغاث موسى لم يكذب عليه، فهو رجل من شيعته يستنصره على رجل من عدوه، فيقوم موسى بوكز الرجل الذي من عدوه فيقضي عليه، ويكون ذلك من عمل الشيطان "قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ". لذا نحن نظن أنه لو كذب الرجل على موسى لما وقع ذلك في باب عمل الشيطان.

أما المعصية التي تقع بسبب الكذب فهو من فعل أنفسنا. ونحن ندعو إلى مراجعة السياقات القرآنية التي تتحدث عن الكذب لنجد أنها تصور الأمر على أنه من عمل الإنسان نفسه:

- ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: 28]
- ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: 42-43]
- ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة: 107]
- ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النحل: 86]
- ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: 105]
- ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المؤمنون: 90]
- ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور: 13]
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ [العنكبوت: 12]
- ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الصافات: 151-152]
- ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة: 18]
- ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر: 11]
- ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: 1]

(وسنتعرض لمثل هذا الزعم بالتفصيل لاحقاً)

أما ما يهمنا الآن فهو الظن بأن الشيطان قد قدّم لآدم وزوجه القول الصادق الذي تم تزينه على النحو التالي:

- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: 120]
- ﴿... وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 20]

ويجب التنبيه إلى الاعتقاد اليقيني بأن إبليس قد قدّم لهما القول الصادق ليس حباً بآدم وزوجه (فالعداوة بينهما مستحكمة) وليس من أجل خيرهما (فهو يعمل من أجل الإيقاع بهما) بل ليغرر بهما "فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ".

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢﴾ [الأعراف: 22]

نتيجة مفتراة: لا يحتاج عدوك أن يكذب عليك حتى يوقعك في مكيدته، فقوله الصدق ربما يكون أكثر دهاء وحيلة من قوله الكذب.

السؤال: مادام أن الله قد حذر آدم وزوجه من عداوة الشيطان لهما ونبّههما من خطر الوقوع في مكيدة الشيطان، فكيف استطاع الشيطان إيقاع آدم في شراكه بهذه الطريقة؟

جواب: لأن إبليس قد زين لهما الأمر

سؤال: كيف تم تزين الأمر لآدم وزوجه؟

جواب: لو تدبرنا النص القرآني جيداً لوجدنا أن الشيطان يقدم لآدم وزوجه سببين اثنين من أجلهما نهاهما ربهما عن الأكل من الشجرة، والسببان هما:

1. أن تكونا ملكين
2. أو تكونا من الخالدين

- ﴿...وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: 20]

ويأتي في سياق آخر خطاب الشيطان موجهاً لآدم وحده دون زوجه على نحو:

- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾ [طه: 120]

فالوسوسة هنا كانت خاصة بآدم والأسباب كانت موجه لآدم نفسه:

- ﴿...قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾ [طه: 120]

فالشيطان يخاطب آدم بطريقة ويخاطب آدم وزوجه معاً بطريقة أخرى، ولا شك عندنا أن الشيطان يعرف كيف ينفذ إلى آدم، ويعرف كذلك كيف ينفذ إلى زوج آدم ليزيّن لهما الأمر، فلا شك أن الشيطان لا يريد أن يكذب عليهما بل يريد أن يزيّن لهما الأمر فقط، لذا فهو يخاطب كل منهم بما تستهويه

نفسه وبما يمكن أن يكون محبباً عنده، فلا شك أن فكرة الخلود والملك الذي لا يبلى هو ما يمكن أن يستهوي آدم، ولكن فكرة أن يكونا ملكين هو ما يمكن أن يستهوي الاثنين معاً، فنحن لا نعتقد أن فكرة الخلد ربما كانت مسيطرة على فكر زوج آدم بقدر ما كانت فكرة أن تكون من الملك

وهنا لا بد من لفت الانتباه مرة أخرى إلى ملاحظة غاية في الأهمية أثرناها سابقاً وهي أن فعل المعصية (وبالتالي الغواية الناتجة عنه) هي من فعل آدم فقط (وليس لحواء دخل بهما، بدليل أن الذي عصى وأن الذي غوى هو آدم نفسه:

- ﴿... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

ولم تكن حواء أكثر من تابع لآدم، لم تتخذ القرار بل فعلت ما فعل زوجها، فهي قامت بفعل الذوق من الشجرة والأكل من الشجرة ولكنها لم تكن صاحبة المعصية والغواية. ولندقق بصيغة المثنى الذي يعود على آدم وزوجه معاً في السياقات التالية:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]
- ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

مقابل ضمير المفرد الذي يعود على آدم نفسه في السياقات التالية:

- وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ
- ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾ [طه: 122]

حجة الشيطان:

- ﴿... إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]

لقد وعد الشيطان آدم وزوجه ممنياً لهم بأن الأكل من الشجرة ستكون نتيجته واحدة من اثنتين: إما أن يصبحا ملكين أو أن يكونا من الخالدين، أليس كذلك؟

سنحاول في الصفحات التالية الخوض في هذين الخيارين اللذين بهما زين الشيطان لآدم فعل الوقوع في المعصية

- إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ

سؤال غريب: كيف يقول الشيطان لآدم وزوجه أن الله منعهما من الأكل من الشجرة لكي لا يكونا ملكين؟ ألم يأمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟ فكيف يمكن أن يتقبل آدم وزوجه فكرة أن يكونا "ملكين" وقد أمر الله الملائكة أجمعين بالسجود لآدم؟ فكيف تم تسويق فكرة "أن يكونا ملكين" على آدم وزوجه والله قد أسجد لهما الملائكة أجمعين؟

رأينا: نعم ذلك ممكن بشرط أن نميز بين لفظة "ملكين" (التي استخدمها الشيطان للإيقاع بآدم وزوجه في شراكه) ولفظة "الملائكة" (الذين طلب الله منهم السجود لآدم)، فلقد خلط العامة (مدفوعين بتأويلات أهل العلم) بين هذه الألفاظ المتقاربة، فظن الغالبية العظمى منهم أن لفظة "ملكين" التي ذكرها الشيطان لآدم ربما تكون مشتقة من لفظة الملائكة، وهذا – في رأينا- أبعد ما يكون عن الحقيقة، وذلك لسبب بسيط وهو أن الذين طُلب منهم السجود لآدم هم الملائكة، لذا يستحيل – نحن نفتري الظن- أن يتقبل آدم فكرة أن يصبح من الملائكة وهم قد أمر للتو بالسجود له. فما الحل؟

رأينا: لو التزمنا بمفردات النص كما هي لوجدنا أن الخروج من هذا المأزق ربما يكون سهلا ميسرا، بحول الله وتوفيقه.

أما بعد،

لقد سوق إبليس لآدم وزوجه فكرة أن يكونا ملكين، وكفى. لذا نحن ندعو إلى التميز بين الملائكة وبين صنف آخر كان آدم وزوجه يطمعان أن يكونا منهما وهم في نظرنا "المَلَك"

نتيجة مفتراة: نحن ندعو إلى التميز بين الملائكة (ومفردها ملك) والمَلَك (ومفردها مَلَك أيضاً)

ما معنى أن تكونا مَلَكين؟ ومن هو المَلَك؟

رأينا: الملك (مفرد ملائكة) هو الذي يفعل ما يؤمر ويمكن أن يحمل الرسالة:

- ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥﴾ [الإسراء: 95]

ولكن هناك أيضاً المَلَك (جمع) ومفرده "مَلَك" أيضاً هو الذي يملك:

الدليل: هناك فرق بين الملائكة (جمع) والمَلَك (جمع)

الملائكة	المَلَك
• ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾ [البقرة: 210] • ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥﴾ [الزمر: 75] • ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: 39] • ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤﴾ [آل عمران: 124] • ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣﴾ [الرعد: 23] • ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠﴾ [الحجر: 30] • ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج: 75]	• ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر: 22] • ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾ [الحاقة: 16-17] • ﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ [النجم: 26]

وهم جميعاً من أهل السماء:

- ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾ [الأنعام: 8-9]
- ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾ [هود: 12]

- ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾ [الفرقان: 7]
- ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [السجدة: 11]
- ﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ [النجم: 26]

وقد جاء الفصل واضحاً بين الملائكة والروح:

- ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤﴾ [المعارج: 4]
- ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨﴾ [النبأ: 38]
- ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤﴾ [القدر: 4]
- ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشعراء: 192-194]
- ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ [غافر: 15]

تبعات الفصل بين الملك والملائكة

افتراء من عند أنفسنا (1): نحن نعتقد أن الذي سجد لآدم هم الملائكة ولكن الله لم يطلب من "المَلَك" السجود لآدم، فلو تدبرنا جميع آيات السجود الأول لآدم لوجدنا أن الله قد وجه الأمر بذلك إلى الملائكة فقط:

- ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحجر: 30-31]
- ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ [ص: 73-74]

الفرق بين المَلَك (بفتح اللام) والمَلِك (بكسر اللام)

افتراء من عند أنفسنا (2): الملائكة والملك (بفتح اللام) هم جميعاً من أهل السماء أما الملك (بكسر اللام) فهو من أهل الأرض (مَلِك: بكسر اللام): فهناك في السماء مَلَك (الجمع مَلَك) وهناك في الأرض.مَلِك (الجمع ملوك)

الدليل: ملك داوود وولده سليمان

لقد طلب الملأ من بني إسرائيل من نبي لهمأن يبعث لهم مَلِكا (بكسر اللام)، فكان ذلك من نصيب طالوت (سنتعرض لاحقاً بحول الله وتوفيقه إلى هذا النبي لنحاول التعرف على اسمه سائلين الله أن يعلمنا ما لم تعلموا):

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: 246]

وما هي إلا فترة زمنية بسيطة حتى انتقل الملك إلى داوود

- ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 251]
- ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: 17-20]

وقد ورث سليمان ملك والده:

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: 16]

ولم يتوقف عند ذلك بل طلب من ربه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فكانت الاستجابة الربانية مباشرة:

- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص: 34-36]
- ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: 37-40]
- ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: 102]

فالمَلِك هو من البشر كحالة ملك مصر في زمن يوسف:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٞ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43]
- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف: 50]
- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف: 54]
- ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾﴾ [يوسف: 72]
- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 76]

أو كحالة طالوت:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةٗ فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: 247]

أو كذلك الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا:

- ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبٗا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: 79]

وأما المَلَك (بفتح اللام) فهو من أهل السماء:

- ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٞ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: 102]

لذا فقد نفى محمد عن نفسه أن يكون مَلَكاً

- ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠﴾ [الأنعام: 50]

وقد نفى نوح عن نفسه تلك الصفة:

- ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾ [هود: 31]

لكن نساء مصر رأين في يوسف تلك الصفة:

- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١﴾ [يوسف: 31]

ولو دققنا جيداً في قول نساء مصر لوجدنا أن الملك (بفتح اللام) لا يكون من البشر:

- وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ

وقد حصل ليوسف شيء من الملك الأرضي:

- ﴿۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: 101]

والملك الذي يحكم قد يكون عادلاً في حكمه كما كان ملك مصر زمن يوسف، وكما كانت المرأة التي حكمت قومها زمن سليمان:

- ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النمل: 23]

نتيجة سنحتاج إليها لاحقاً: الملك هو صاحب العرش

وقد يكون مستبداً ظالماً يأخذ السلطة بالقوة:

- ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ [الكهف: 79]

وليس أدلّ على ذلك من ملك فرعون:

- ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: 51]

أو ذلك الملك الظالم الذي حاج إبراهيم في ربه:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: 258]

والمَلِك (بكسر اللام) تجمع على نحو " ملوك" كما في قصة من يسميها أهل العم "بلقيس":

- ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةًۚ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل: 34]

ولكن المَلَك (بفتح اللام) تجمع على مَلَك وعلى ملائكة:

- ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: 95]
- ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: 75]
- ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: 22]

أما الله فهو الملك الحق

- ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: 114]
- ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: 116]

المفرد		الجمع	
مَلَك	﴿... وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: 31]	ملائكة	﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥﴾ [الإسراء: 95]
مَلَك	﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنعام: 50]	مَلَك	﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر: 22]
مَلِك	أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾ [الكهف: 79]	ملوك	﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤﴾ [النمل: 34]

تساؤلات: من الذي سجد لآدم؟ هل سجد جبريل مثلاً لآدم؟ هل سجد ميكال لآدم؟ هل أمر الله هؤلاء "الملكين" مثلاً بالسجود لآدم؟

هذا ما سنناقشه في مقالة خاصة بالملائكة، لكن يكفينا أن نذكّر القارئ الكريم بضرورة التمييز بين المجموعات التي ورد ذكرها في الآية الكريمة التالية:

- ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٩٨﴾ [البقرة: 98]
- ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ [التحريم: 4]

افتراء من عند أنفسنا: نحن نزعم القول أن هناك فرق بين مجموع الملائكة الذين أُمروا بالسجود لآدم والمَلَك الذين كان آدم وزوجه يطمعان أن يكونا مثلهما، وقد جاءت مكيدة الشيطان من هذا الباب، فقد كان الشيطان يحاول إقناع آدم وزوجه بأن الأكل من تلك الشجرة يمكن أن ينتهي بهما إلى أن يكونا ملكين، ولكن من هم؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نزعم الظن أن الملكين الذين كان يتمنى آدم وزوجه أن يصبحا مثلهما لحظة الأكل من الشجرة هما "كجبريل وميكال"، ولكن لماذا؟

ولكن هذا لا يستثني أن يكونا الملكين هما هاروت وماروت:

- ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: 102]

وسنحاول التعرض لهذا الخيار في مقالة منفصلة عند الحديث عن داوود وولده سليمان بحول الله وتوفيقه، ونسال الله أن يعلمنا من لدنه علماً لا ينبغي لأحد من بعدنا إنه هو العليم الحكيم.

الدليل

جاء في النص القرآني فصلاً واضحاً بين مجموع الملائكة من جهة و جبريل وميكال من جهة أخرى في قوله تعالى:

- ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: 98]

فلو أمعنا التفكير في هذه الآية الكريمة لوجدنا الفصل واضحاً بين الملائكة من جهة وجبريل وميكال من جهة أخرى، فلو كان جبريل وميكال جزء من الملائكة لما كان هناك ضرورة لذكرهما، ولو كان الهدف – كما يظن البعض- هو للتخصيص لربما ورد ذكرهما مباشرة بعد ذكر الملائكة، ولكن لو دققنا جيداً في الترتيب كما يرد في الآية الكريمة نفسها لوجدنا أن الملائكة مفصولين عن جبريل وميكال بمفردة " وَرُسُلِهِۦ "، فتصبح الآية الكريمة تتحدث عن ثلاثة مجموعات على الترتيب التالي:

⇐ الملائكة " وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ "

⇐ الرسل " وَرُسُلِهِۦ "

⇐ " وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ " (وهم من نظن أنهم من المَلَك الذين سيكونون صفاً صفاً وليس الملائكة الذي سيكونون حافين من حول العرش)

سؤال: لماذا ذكر الشيطان لآدم وزوجه بأن الأكل من الشجرة سيجعلهما "مَلَكَيْنِ"؟

- ﴿... إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ... ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 20]

سؤال: لماذا لم يطلب آدم وزوجه توضيحاً من الشيطان عن طبيعة وشكل وهيئة وتركيبة هذين الملكين؟ أيعقل أن يتقبل آدم وزوجه أن يصبحا ملكين وهم لا يعلمون كيف هم؟

رأينا: كلا وألف كلا، لم يكن آدم وزوجه ليتقبلوا فكرة أن يكونا ملكين لو لم يكونا على علم كيف هم الملكين فعلاً؟

لذا، نحن نزعم الظن بأن عدم نقاش آدم الفكرة مع الشيطان وعدم طلب توضيحات أضافية يجعلنا نميل إلى الاعتقاد اليقيني بأن آدم وزوجه يعلمان ماهية هذين المَلَكين اللذين يتمنيان أن يكونا مثلهما، فمن هم هذان الملكان؟

رأينا: يميل الظن عندنا إلى الاعتقاد بأن هذين الملكين هما "جبريل وميكال"

افتراء خطير جداً من عند أنفسنا نرجو أن لا تصدقوه: نحن نزعم الظن بأن علاقة جبريل بميكال تشبه تماما علاقة آدم بزوجه قبل الخروج من الجنة (وهنا يجب أن لا يطير ذهن الناس إلى العلاقة الجنسية فقط) ولكن ما نقصد فهي علاقة الأزواج ببعضها، لذا نحن نفتري الظن بأن "جبريل وميكال" هما زوجان تماماً كحالة آدم وزوجه قبل الخروج والهبوط من الجنة (أي قبل أن يتمكن الشيطان من أن ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما)، ولكن أين الدليل على ذلك؟

جواب: نحن نزعم أن الدليل موجود في قوله تعالى:

- ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [الذاريات: 49]

فمادام أن جبريل هو شيء (بغض النظر عن ماهيته) فلا بد أن يكون له زوج، ونحن نفتري القول بأن ميكال زوج جبريل. وأن جبريل هو زوج ميكال.

سؤال: ماذا عن الله؟ إن صح قولك – يقول صاحبنا- أليس الله شيء، فأين زوجه؟

رأينا: لنقرأ كيف يرد الله في كتابه الذي لم يفرّط فيه من شيء على سؤال كهذا:

- ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: 11]

انظر – عزيزي السائل- كيف تتحدث الآية الكريمة عن الأزواج (جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا)، وكيف تتحدث عن كيفية العلاقة بين الأزواج (يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ) وكيف تردّ الآية الكريمة نفسها في الوقت ذاته عن الله (فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) تهمة التزاوج (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ).

- ﴿... أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: 20]

ولكن هناك سيناريو آخر قدمه الشيطان لآدم وزوجه وهو أن يكونا من الخالدين:

- ﴿...وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: 20]

فبعد أن تحدثنا عن الخيار الأول (إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ) ننطلق الآن للخوض والتخريص في الخيار الثاني (أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ)

أما بعد،

أكد الشيطان فكرة الخلود هذه (أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ) في سياق قرآني آخر، حيث جاء في كتاب الله:

- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾ [طه: 120]

وقبل المضي قدماً في هذا النقاش لابد من إثارة تساؤل آخر وهو: لماذا قدّم الشيطان الأمر إلى آدم بصيغة "إلا أن... أو..."؟ لماذا قدم لهما خيارين وليس خياراً واحداً؟

- ﴿...وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: 20]

رأينا: يمكننا أن نفهم مثل هذا النوع من الخطاب عندما نضعه في سياقه الأوسع ونستذكر كيفية مخاطبة الله لإبليس لحظة أن رفض السجود لآدم:

- ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥﴾ [ص: 75]

وعندما جاء رد إبليس على سؤال ربه أكد واحدة من هذين الخيارين، وليس الخيارين معاً:

- ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾ [ص: 76]

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان هل لعلم الله حدود؟)

لذا عندما نعود إلى خطاب الشيطان مع آدم وزوجه نجد أن الشيطان يظن (غير كاذب) أن الأكل من الشجرة يمكن أن تكون نتيجته واحدة من اثنتين: إما أن يصبح آدم وزوجه مَلَكين (على حالة جبريل وميكال) أو أن يكونا من الخالدين. وتجدر الإشارة هنا إلى وجود سياق قرآني آخر ربما يفهم منه أن الشيطان كان يرجح فكرة الخلود:

- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾ [طه: 120]

وهنا يقدم آدم على التجربة ليرى ما ستؤول إليه الأمور، فهل سيصبح آدم وزوجه ملَكين أم سيكونا من الخالدين؟

رأينا: لقد أصبح آدم وزوجه من الخالدين عندما أكلا من الشجرة.

سؤال: وكيف ذلك؟ ألم ينتهي الأمر بآدم وزوجه بالموت؟ فهل أصبحا فعلاً من الخالدين كما تزعم؟

رأينا: نعم، لقد أصبح آدم وزوجه من الخالدين بالرغم من وقوع الموت عليهما. ولكن كيف؟

لنستذكر القصة مرة أخرى

أما بعد،

اختار آدم وزوجه أن يأكلا من شجرة الخلد التي دلّهما الشيطان عليها:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢﴾ [الأعراف: 20-22]

فالشيطان كان قد دلّ آدم على شجرة الخلد:

- قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ

فكانت النتيجة أنه دلّاهما بغرور:

- فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ

فأنت عندما تدلّ شخصا ما على شي، ما أو مكان ما، فإن جلّ ما يمكن أن تفعله هو أن تأخذ بيده إليه:

- ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝١٤﴾ [سبأ: 14]
- ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ [طه: 40]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾ [سبأ: 7]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠﴾ [الصف: 10]

فالشيطان أخذ بيد آدم وزوجه ودلّاهما على شجرة الخلد، فكان النتيجة أن غرر بهم، فأوقعهم في شراكه:

- ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: 120]
- ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: 64]
- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [فاطر: 40]
- ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: 14]

فالشيطان كان قد وعد آدم وزوجه ومنّاهم، فلم يكن وعد الشيطان وأمانيه أكثر من الغرور (وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا).

الفرق بين وعد الله ووعد الشيطان:

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان: 30]
- ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: 22]

فالله يعدكم وعد الحق (إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ) ولكن وعد الشيطان ليس أكثر من الغرور ﴿... وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: 120]، ويكون هدف الشيطان هو أن يخلفهم (وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)

قصة آدم الأولى: صراع بين وعد الله ووعد الشيطان

سؤال: ماذا وعد الله آدم؟

جواب: لقد وعد الله آدم بالخلافة على الأرض:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]

سؤال: وماذا وعد الشيطان آدم؟

جواب: لقد وعد الشيطان آدم بالخلد على الأرض

- ﴿... وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]

سؤال: ماذا اختار آدم؟

جواب: لقد اختار آدم الخلد إلى الأرض بدلاً من خلافة الأرض.

ما الفرق بين الخلافة والخلد؟

هذا هو الهدف الذي جهدنا للوصول إليه: إنه التمييز بين خلافة الأرض والخلد على الأرض، لذا نحن نقدم الافتراء التالي:

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن أن هناك فرق كبير بين أن يكون الإنسان خليفة الله على الأرض وأن يكون الإنسان مخلداً على الأرض، ولنرجع إلى قصة الخلق الأولى لنتدبرها مرة أخرى من هذا المنظور

أما بعد،

يتخذ الله قراره بأن يجعل على الأرض خليفة ويخبر الملائكة بذلك:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: 30]

فيعلّم الله آدم الأسماء كلها ويعرضهم على الملائكة لينبئهم بأسمائهم، فيقر الملائكة أجمعون بعلم الله الذي لا يعلمونه هم:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: 31-33]

فيأمر الملائكة (وليس المَلَك) بالسجود لآدم، فيذعنون للأمر الإلهي ويتخلف إبليس عن قبول الأمر الإلهي لاستكباره: ومثل هذا المنطق – على ركاكته- لا يمنعنا من الافتراء بأن إبليس وإن كان من جمع الملائكة الذين أمروا بالسجود إلا أنه بكل تأكيد لم يكن من جمع المَلَك الذين لم يؤمروا بالسجود لآدم.

- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 34]

فيصدر الأمر الإلهي لآدم وزوجه بالسكن في الجنة على أساس مبدأ الخلافة:

- ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]

ولما كانت الحياة في الجنة خلافة، كانت على النحو التالي:

- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ [طه: 118-119]

ويأتي التحذير الإلهي لآدم وزوجة بعاقبة مخالفتهم الأمر والانصياع لأمر عدوهما الشيطان:

- ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه: 117]

فالخروج من الجنة تعني الشقاء ممثلاً بالجوع والعري والظمأ والضحى:

ما معنى الضحى

ربما لا يختلف الكثيرون في معنى الجوع والظمأ والعري ولكن غالباً ما أشكل على الناس معنى الضحى الذي يرد في هذا السياق القرآني، لذا نحن ندعو إلى الوصول إلى مثل هذه المعاني بطريقة التقابل، ولكن كيف؟

- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨﴾ [طه: 118]
- ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ [طه: 119]

فالجوع (من قلة الطعام) يقابله الظمأ (من قلة الماء):

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ [النور: 39]

والعري (الذي يؤدي إلى التأثر بالبرودة) يقابله الضحى (الذي يؤدي إلى التأثر بالحرارة)

لذا فإن حياة آدم وزوجه في الجنة (على أساس الخلافة) لم يكن فيها شقاء لأنهما لم يكونا يتأثران بعوامل الطقس المحيطة من البرد والحرارة والجوع والظمأ، ولكن بعد الخروج من الجنة أصبحت حياتهم تتأثر بعوامل المناخ، فأصبحت حياة ملئها الضحى (الحر) والعري (البرد) والجوع (قلة الطعام) والظمأ (ندرة الشراب)، ولكن لماذا؟

رأينا: لأن الشيطان كانت تلك هي غايته، فنيته كان مبيتة في أن ينزع عنهما لباسهما لتبين لهما سوآتهما:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]

وتأتي المفاجأة بانصياع آدم وراء وعد الشيطان، مخالفا في الوقت ذاته الأمر الإلهي له ولزوجه بعدم الاقتراب من الشجرة:

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: 36]

نتيجة مفتراة: تدلنا السياقات القرآنية السابقة – كما نفهمها نحن- أن آدم قد اختار الخلد مع الشقاء بدلاً من الخلافة مع عدم الشقاء

الفرق بين الخلافة والخلد

سنحاول التعرض لهذه الجزئية بطرح سؤال غريب جداً قلّما تناوله أهل العلم والدراية وهو: لم لم تتحصل لآدم وزوجه الذرية وهما في الجنة (قبل الهبوط)؟ ألم يسكنا الجنة قسطاً من الزمن؟ لم خرج آدم من الجنة مع زوجته دون ذرية؟ ألم يحصل التلاق الجنسي (المودّة) بين آدم وزوجه قبل الأكل من الشجرة؟ وإن حصل تلاق جنسي بينهما فكيف كانت طريقته وهما لا يزالان يلبسان ما يواري سوآتهما؟ ولم تحصّلت لآدم وزوجه الذرية بعد أن أخرجهما الشيطان من الجنة وهبطا منها بأمر رباني؟

جواب ظنّي: لأن آدم وزوجه قبل الوقوع في المعصية كان عليهما لباس (ولا أعرف كيف يمكن أن يتم التواصل الجنسي بين آدم وزوجه وهما يلبسان)، ولكن ما أن أكلا من الشجرة حتى تمكن الشيطان من أن ينزع عنهما لباسهما، فتبين لهما سوآتهما:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]

وهنا تبدأ قصة العلاقة الجنسية التقليدية التي أصبح البشر يمارسونها منذ تلك اللحظة. وهو ما كان – في رأينا- سبب الخلد. ولكن كيف؟

أما بعد،

رأينا: ذلك هو الخلد (إنه الذرية بطريقة التلاق الجنسي الذي نعرفه نحن البشر)، فنحن نفتري القول أنه لو بقي آدم وزوجه يسكنان الجنة على مبدأ الخلافة لما تحصلت لهم الذرية بالطريقة التي نعرفها وهي التلاق الجنسي (ما دام أنّ لباسهما لم ينزع عنهما بعد)، لأنّ الحياة في الجنة (على مبدأ الخلافة) حياة لا شقاء فيها، ولكن كيف؟

للإجابة على هذا السؤال لابد من طرح سؤال آخر وهو: ما سبب شقاء الإنسان على الأرض؟ لماذا نشقى نحن البشر على الأرض؟ أليست الذرية هي سبب الشقاء؟ لم يتعب الأب (وربما ينسى نفسه) في تحصيل قوت أولاده؟ ولم تسهر الأم (وتترك النوم حتى وإن كانت في أمس الحاجة له) للسهر على راحة أطفالها؟ ولم نكدّ ونجتهد على الأرض؟ وماذا لو انشغل كل منا بنفسه؟ ولنعقد مقارنة بين حياة البشر وحياة الشجر مثلاً؟ فهل يتعب الشجر (مثلاً) ليقوم على خدمة بعضه البعض؟ هل تترك الشجرة الأم غذاءها للشجيرات التي تنمو بجانبها؟ هل يأبه الشجر ببعضه البعض؟ ولكن لماذا؟

رأينا: لأن الشجر لا يتكاثر بطريقة الخلد. إن ما يهم الشجرة هو الحصول على ما تريد دون الانتباه إلى حاجة الآخرين، فلا أظن أن شجرة كبيرة تحزن على فقدان شجيرة صغيرة تنمو بجنبها أو تعيش بالقرب منها (من يدري؟!). فلِمَ يحزن الإنسان (وربما يشقى) لموت عزيز أو قريب أو جار أو حتى أي إنسان آخر؟ ثم إذا كان الأمر كذلك، لم لا تستمر هذه الحالة إلى يوم القيامة؟ فما الذي سيحصل يوم القيامة؟

- ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس: 34-37]

فما بال الأم التي كانت لا تتردد بأن تلقي بنفسها في النار في الحياة الدنيا لتنقذ طفلها تهرب اليوم بنفسها غير آبهة بما سيحل بأولادها؟ وما بال الأب الذي كان يتمنى الموت قبل أن يموت ولده لا يفعل ذلك في يوم القيامة؟

لقد درج الفكر السائد إلى إفهامنا بأن ذلك ناجم عن هول المشهد. ولكننا لا نتردد أن نتبع السؤال بالسؤال: كيف ستتلذذ الأم التي ستدخل الجنة وهي تعلم أن أبناءها يصطرخون في النار؟ كيف ستتنعم أنت عزيزي القارئ بخيرات الجنة وأنت تعلم أن طعام والديك من غسلين؟ وكيف ستتمتع بنعيم الجنة وأنت على علم بأن إخوانا لك يأكلون من شجر الزقوم؟ وكيف سيجد نبي الله إبراهيم الحياة في الجنة ممتعة ووالده لا محالة هالك في النار؟ وهكذا.

رأينا: لأن الحياة في الجنة مبنية على الخلافة وليست على أساس الخلد. ولكن كيف؟

افتراء من عند أنفسنا: إن الحياة المبنية على الخلافة لا يكون التكاثر فيها بطريقة الأنساب، فليس هناك أب وليس هناك أم ولا أخ ولا أخت ولا عم ولا قريب ولا بعيد. وذلك لأن التكاثر يكون بطريقة غير طريقة الأنساب، فحن سنخرج من الأرض للقاء ربنا في يوم الفزع الأكبر كما تخرج النباتات من الأرض:

- ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: 43]

(للتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالتنا تحت عنوان لماذا يدفن الناس موتاهم؟)

لذا تنتفي علاقة النسب بين البشر، وهذا واضح بنص القرآن الكريم:

- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: 101]

والحالة كذلك، تعود الحياة مرة أخرى لتكون مبنية على مبدأ الخلافة التي لا شقاء فيها من جديد، ولكن كيف؟

مثال: لو أنت أخذت غصناً من شجرة وقمت بزراعته، ونبت ذاك الغصن شجرة جديدة فما العلاقة بين الشجرة الأم والشجرة الجديدة؟

جواب: لا تكون العلاقة بين الشجرة القديمة والشجرة الجديدة علاقة أم بابنتها، فهذه شجرة وتلك شجرة، ولو أنت قطعت الشجرة القديمة فلن يكون ذلك سبباً في شقاء الشجرة الجديدة (بل على العكس فذلك يجلب الفائدة للشجرة الجديدة) ولن تحزن الشجرة القديمة لو لم يحالف الشجرة الجديدة الحظ في الحياة.

رأينا: لو بقي آدم يعيش في الجنة على مبدأ الخلافة لكان مبدأ التكاثر في الجنة لا يختلف كثيراً عن مثال تكاثر الشجر في الحياة الدنيا، ولنمعن التفكر في الآية الكريمة التالية التي ستشكل مفصلاً مهماً في بحثنا هذا لما سيترتب عليها من عقائد بعد قليل بحول الله وتوفيقه، مركزين على التسلسل في الأحداث:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: 11]

ولكن لمّا اختار آدم أن يأكل من الشجرة كانت الحياة على الأرض حياة خلد (أنساب) وليس حياة خلافة (بلا أنساب).

ولا يظنن أحد بأن هذا هو اختار آدم وحده، فلقد اختار كثير من أنبياء الله الذرية، فلقد اختار إبراهيم الذرية واختار زكريا الذرية بالرغم من يقينه بأن الله هو خير الوارثين:

- ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: 89]

وها نحن (البشر جميعاً) ننفق الأموال الكثيرة في الذهاب إلى الطبيب لو كان الإنسان عقيماً لا ينجب، وما أن ينجب حتى تبدأ حياته لتكون مليئة بالشقاء والتعب. نعم يختار الإنسان الشقاء مع الخلد على الخلافة مع عدم الشقاء، حباً في الخلد (الأنساب). ولكن ما الدليل على مثل هذا التخريص؟

أما بعد،

نحن نظن أننا بحاجة أن نقدم بعض الآيات الكريمة معاً لنرى كيف يمكن أن نحل الإشكال في التضارب الظاهر بين ما تقدمه كل آية لوحدها، والآيات الكريمة هي:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: 11]
- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: 172]
- ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: 67]
- ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: 78]

تساؤلات حول ما جاء في هذه الآيات الكريمة

دقق – عزيزي القارئ- جيداً في ما تقدمه هذا الآيات الكريمة عندما توضع جنباً إلى جنب لنتدبرها معاً، ألا تثير تساؤلات لديك كالتساؤلات التالية:

⇐ كيف أن الله قد خلقنا ثم صورنا ثم قال للملائكة اسجدوا لآدم؟ هل فعلاً تم خلقنا وتصويرنا قبل أن يأمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟
⇐ وكيف بالله يأخذ من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ويشهدهم على أنفسهم بأنه هو ربنا؟ وكيف لنا أن نقرّ بتلك الربوبية لتكون حجة لله علينا في يوم القيامة؟ هل يذكر أحد منا ذلك الموقف؟
⇐ وكيف بالله يطلب منّا أن نتذكر أنه قد خلقنا من قبل؟ ومتى كان ذلك الخلق؟
⇐ وكيف بعد كل ذلك كله يقر الله في كتابه العزيز أنه أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً؟

للإجابة على هذه التساؤلات فإننا نقدم الافتراءات التالية محاولين الخروج من التناقضات الظاهرة التي يمكن أن تدخل في الأذهان متى جلبت الآيات الكريمة معاً:

أولاً، لقد تم خلقنا وتصويرنا جميعاً قبل أن يأمر الله الملائكة بالسجود لآدم ومصداق ذلك التسلسل الزمني الذي تصوره الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: 11]

ثانياً: تم إيداعنا كذرية في ظهر آدم مرة واحدة وللأبد:

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: 172]

ثالثاً: أصبحت تلك الذرية تتناقل في ظهور بني آدم:

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: 172]

رابعاً: كانت تلك الذرية خلقاً كاملاً يحمل كل الصفات الوراثة لآدم، لذا لو بقيت الحياة تقوم على مبدأ الخلافة لكنا جميعاً خليفة لآدم وما كنّا لنصبح ذرية لآدم (فهناك فرق كبير بين أن تكون خليفة أو أن تكون ذرية وهو ما سنتعرض له بعد قليل):

- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: 58]

خامساً: عندما تحولت الحياة لتبنى على مبدأ الخلد انتقل الخلق جميعاً من ظهور آباءهم (آدم) إلى بطون أمهاتهم (حواء).

سادساً: كان نتيجة تلك المرحلة (المكوث تسعة أشهر في بطون أمهاتنا) أن نسي الإنسان خلقه الأول، فخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً:

- ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: 78]

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن دخول الإنسان إلى بطن أمه بعد أن كان متواجداً كخلق كامل في ظهر أبيه هو سبب نسيانه خلقه الأول، ففترة التسعة أشهر الذي يقضيها المخلوق في بطن أمه تكون كافية لأن تمسح من ذاكرته كل العلم الذي تلقاه في بداية الخلق يوم أن خلقهم الله جميعاً وصوّرهم وأودعهم في ظهر آدم وأمر الملائكة بالسجود لآدم. وأشهدهم على أنفسهم، وهو ما جعل ذلك المخلوق يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً:

- وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا

فالنص القرآني يتحدث عن مرحلة خروج الإنسان من بطن أمه ليكون في حالة "انعدام العلم" (لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا)، ولكن هذا التصور يثير لدينا التساؤل التالي: كيف كانت "حالة العلم" لديه قبل أن يدخل في بطن أمه؟

رأينا: نحن نفتري الظن أنه عندما يكون الإنسان متواجداً في ظهر أبيه يكون على علم بقصة خلقه الأول وشهادته على نفسه، ويكون متذكراً تماماً لما حصل له في قصة خلقه الأولى:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝١١﴾ [الأعراف: 11]
- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۝١٧٢﴾ [الأعراف: 172]
- ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۝٦٧﴾ [مريم: 67]

ولكن عندما ينتقل ذلك المخلوق من ظهر أبيه إلى بطن أمه تبدأ قصة "التجهيل" (لنقل تجاوزاً)، وما أن يخرج من بطن أمه حتى تكون تلك الذاكرة قد مسحت تماماً، فيخرج في حالة "انعدام العلم":

- ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: 78]

ويكون سبب ذلك هو ما يمر ذلك المخلوق فيه وهو في بطن أمه:

- ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ [الزمر: 6]

خروج الإنسان إلى الحياة: صراع بين الخلافة والوراثة

الوراثة هي أن يرث الابن والده:

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ۝١٦﴾ [النمل: 16]
- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: 5-6]

أما الخلافة: فهي أن يرث الإنسان إنسان آخر (غير وراثة الابن لوالده):

- ﴿۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ۝١٤٢﴾ [الأعراف: 142]

- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: 26]

فبالرغم أن سليمان قد تحصل له الملك وراثة من والده (وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ) انتقل الأمر إلى داوود في البداية من طالوت، فكان ذلك خلافة (يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ). فأبو بكر هو خليفة للنبي محمد وعمر خليفة لأبي بكر وهكذا.

نتيجة مفتراة: نحن نفتري القول بأنه في يحين أن الله قد اختار للإنسان حياته على الأرض لتكون خلافةً، فضل الإنسان (آدم) بنفسه خيار الخلد (الوراثة) فاختلفت الآلية التي سيخرج بها الخلق جميعاً إلى الحياة، ولكن كيف؟

تخيلات من عند أنفسنا عن حياة الخلافة

لو بقيت الحياة تسير على مبدأ الخلافة كما اختارها الله للإنسان، لربما لم يكن هناك علاقة الأنساب التي نعرفها اليوم، ولربما كنّا نتصور خروج الإنسان إلى الحياة على النحو التالي:

- ⇐ الله يخلق الخلق جميعاً من تراب مرة واحدة، فيصورهم، ويستودعهم في ظهر آدم، ويأمر الملائكة بالسجود لآدم.
- ⇐ لا يلتفت آدم إلى نصيحة الشيطان ويبقى على عهد ربه،
- ⇐ لا يتم نزع اللباس عن آدم وزوجه،
- ⇐ لا تبدى لهما سوآتهما،
- ⇐ لا يحصل التلاق الجنسي بين آدم وحواء (ما دام أنهما لا يزالان يلبسان عليهما)،
- ⇐ لا ينتقل الخلق من ظهر آدم إلى بطن حواء،
- ⇐ يخرج الإنسان إلى الحياة مباشرة من ظهر آدم،
- ⇐ لا يحصل النسيان للخلق الأول،
- ⇐ ما أن يخرج ذلك المخلوق حتى يكون نسخة طبق الأصل لآدم، لدية العلم التام الذي كان آدم قد حصل عليه من ربه،
- ⇐ لا يحتاج ذلك المخلوق إلى رعاية من غيره مادام أن لدية العلم بذلك،
- ⇐ لا يحتاج آدم وزوجه أن يقوما على رعاية ذلك المخلوق الجديد مادام أنه يستطيع الاعتناء بنفسه بما لديه من علم،
- ⇐ سيبقى ذلك المخلوق متذكراً لقصة خلقه الأولى وسيبقى على عهده الأول مع ربه. وسيكون منقاداً إلى ربه دون الحاجة إلى من يرشده.

الشاهد على هذا الظن

لو راقبنا سلوكيات بعض الكائنات الحية الأخرى لوجدنا في بعضها العجب، فها هي السلاحف البحرية – مثلاً- تخرج من البحر في وقت معين من العام لتضع بيضها على الشاطئ وتعود على الفور إلى المياه، وما هي إلا فترة قصيرة حتى يبدأ ذلك البيض بالتفقيس، وما أن تخرج تلك المخلوقات الجديدة من بيضها حتى تبدأ رحلتها في الحياة على خطى والدتها، فتنطلق إلى البحر لتعود بدورة الحياة من جديد. إن ما يهمنا في مثل هذا التصرف من قبل بعض الكائنات الحية هو القول بأن السلاحف الجديدة لم تتلقى تدريباً على الحياة من قبل والدتها الأم، ولم ترعى الأم صغارها ولم تقم على خدمتها، ولكن بالرغم من ذلك، فالمخلوقات الجديدة تتصرف بالضبط كما فعلت والدتها، فمن الذي علمها يا ترى؟ وكيف اكتسبت تلك المعرفة؟

رأينا: تلك هي حياة الخلافة.

لذا نحن نظن أنه لو بقيت الحياة على الأرض تسير على مبدأ الخلافة لكانت حياة البشر على الأرض أشبه بحياة تلك السلاحف، تخرج "ما يسميه أهل العلم المحدثين بـ "الحيوانات المنوية" من ظهر آدم مباشرة، تتكاثر لوحدها، لا تحتاج إلى تدريب، ولا تحتاج إلى رعاية من غيرها، لأنها تكون حينئذ على علم بما هي مخلوقة من أجله وهو أن تشهد لخالقها بالربوبية:

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: 172]

فما أن يخرج ذلك المخلوق من ظهر والده ويكبر إلا ويكون لا زال على عهده الأول بأن الله هو خالقه وهو ربه، ولا يمكن أن يحيد عن تلك الشاكلة، فتكون الحياة على الأرض حياة أشبه بحياة الجنة.

حقائق عن حياة الوراثة

لكن – بالمقابل- عندما آثر آدم أن يتبع نصيحة الشيطان وأقدم مع زوجه على الأكل من الشجرة، تمكن الشيطان من أن ينزع عنهما لباسهما

⇐ ما أن نزع عن آدم وزوجه لباسهما حتى بدت لهما سوآتهما فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة،
⇐ صدر الأمر الإلهي لآدم وزوجه بالهبوط من الجنة،
⇐ هبط آدم وزوجه من الجنة منزوع عنهما لباسهما،
⇐ حصل التلاق الجنسي بين آدم وزوجه،
⇐ انتقل ما كان يحمل آدم في ظهره من الذرية إلى بطن حواء،
⇐ مكث ذلك المخلوق تسعة أشهر في بطن أمه،
⇐ كان خلال تلك الفترة في ظلمات ثلاث،

⇐ أدى ذلك به أن ينسى خلقه الأول،
⇐ خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً،
⇐ كان نتيجة لذلك بحاجة إلى من يأخذ بيده ليدلّه كيف يعيش على هذه الأرض،
⇐ أصبحت العلاقة بين ذلك المخلوق ووالده ووالدته علاقة نسب،
⇐ تكفل الأم والأب برعاية ولدهما حتى يكبر،
⇐ نشأت علاقة وراثة بين الوالدين والمولود،
⇐ نسي ذلك المخلوق عهده الأول الذي قطعه على نفسه مع ربه،
⇐ كان نتيجة لذلك بحاجة إلى من يرشده إلى ربه،
⇐ لما كانت المعلومة تتحصل له من قبل البشر لم يأخذها بجدية تامة،
⇐ اختلف الخلق في طريقة تقبلهم لرسالة أنبياءهم.

تساؤلات وقحة

مادام أن الإنسان يخلق من حيوان منوي واحد من السائل الذي يودعه الرجل في رحم المرأة، فلم هناك مليارات "الحيوانات المنوية" في ذلك السائل؟ لم لا تتاح لجميعهم فرصة الحياة مرة واحدة؟ وهنا قد ينبري الجميع بالرد: وكيف يستطيع بطن المرأة تحمل ذلك؟

نقول هذا صحيح لا يستطيع بطن المرأة تحمل ذلك، لكن للنظر إلى الأمر بطريقة ثانية: ألا يكفي أن يكون هناك حيوان منوي واحد فقط في سائل الرجل؟ لم كل ذلك الزحام؟ فما الحاجة إلى مليارات الحيوانات المنوية في سائل الرجل الواحد مادام أن الحياة تنشأ من حيوان منوي واحد فقط؟

رأينا: أولئك هم الذرية الذين أودعهم الله في ظهور آبائهم وأشهدهم على أنفسهم. إنهم يحملون جميع المعلومات البشرية التي اختطها الله عليهم كبشر، وهم جميعاً يتنافسون في الخروج إلى الحياة، لكن لما حصل أن مكث من استطاع أن يأخذ فرصته في القدوم إلى الحياة تسعة أشهر في بطون أمهاتهم ولم يخرجوا إلى الحياة من ظهور آبائهم مباشرة، كان ذلك سبباً كافياً للنسيان وضياع العلم، وتلك – في رأينا- هي الإشكالية التي وضعنا بها آدم يوم أن تقبل نصيحة الشيطان وأكل من الشجرة.

فلو خرجنا من ظهر آدم مباشرة دون الحاجة إلى الانتقال والمكوث في بطن حواء، لخرجنا نشهد لله بربوبيته لنا، ولما كنّا قد اختلفنا في ذلك في الحياة على الأرض، ولبقيت الأرض جنة كما أرادها الله لنا. ولكن لمّا أكل آدم من الشجرة وبدت له ولزوجه سوآتهما وحصل التلاق الجنسي الذي نعرف بينهما، كان لزاماً أن يودع آدم تلك الذرية التي يحملها في ظهره في بطن حواء مرة واحدة، وبقيت تلك الذرية تنتقل في ظهور بني آدم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن المخلوق الذي مر بتلك التجربة وهي الانتقال من ظهر والده إلى بطن أمه هو من حصل له فعل النسيان، ولكن المخلوق الذي لم يمر بتلك التجربة فقد بقي على

عهده الأول فلم ينسي ما عاهد ربه عليه، وليس أدل على ذلك من خلق عيسى بن مريم. فهو لم يمر بتجربة الانتقال تلك لذا كان قد تكلم منذ يومه الأول وكان أول ما لفظ هو:

- ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠﴾ [مريم: 30]

وسنتعرض بالتفصيل لتبعات هذا الظن عند الحديث عن عيسى بن مريم في مقالات مستقلة بحول الله وتوفيقه.

اسأل الله أن نعلم منه ما لا تعلمون، ونسأله تعالى أن يؤتينا علماً من لدنه لا ينبغي لأحد من بعدنا إنه هو العليم الحكيم

المدكرون: رشيد سليم الجراح، علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
مركز اللغات، جامعة اليرموك، الأردن



بداية الخلق

الجزء الثالث



الجزء الثالث: هل فعلاً كذب الشيطان على آدم؟ ج2

قدّمنا في نهاية مقالة سابقة لنا الافتراء بأن هناك طريقتان للتكاثر وهما:

1. طريقة الخلافة التي اختارها الله لآدم وذريته من بعده:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]

2. وطريقة الخلود التي اختارها الشيطان لآدم وذريته:

- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: 120]

وزعمنا الظن أن آدم وزوجه نُهيا عن الأكل من الشجرة حتى لا يكونا من الخالدين:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 20]

وحاولنا التفصيل كيف آثر آدم النزول عند رغبة الشيطان فاختار الطريقة الثانية التي وصفت بالقرآن الكريم بالشقاء:

- ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه: 117]

وزعمنا الظن أنه لو بقي آدم يعيش في الجنة يتكاثر على مبدأ الخلافة لما حصل الشقاء له:

- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: 118-119]

وحاولنا التبرير لذلك بكيفية اختلاف الخلق في كلا الطريقتين، فزعمنا الظن أنه لمّا استطاع الشيطان أن ينزع عن آدم وزوجه لباسهما ليريهما سوآتهما، بدأت منذ تلك اللحظة عملية التزاوج الجنسي بين الذكر والأنثى وعملية التكاثر بالولادة:

- ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: 189]

وحاولنا ربط ذلك ببعض الآيات الكريمة التي ترد في كتاب الله وربما تُظهِر للوهلة الأولى بعض التضارب الظاهري بين ما تقدمه كل آية منفصلة، والآيات الكريمة يمكن تقسيمها إلى مجموعتين:

1. في المجموعة الأولى نجد أن الله قد خلق الخلق جميعاً مرة واحدة، فصورهم، وأودعهم في ظهور آبائهم (آدم)، وأشهدهم على أنفسهم بأنه ربهم، وشهدوا بأنفسهم على ذلك، وأسجد الملائكة لآدم:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: 11]
- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: 172]
- ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: 67]

2. أما في المجموعة الثانية نجد أن الإنسان قد خرج من بطن أمه إلى هذه الحياة لا يعلم شيئاً:

- ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: 78]

وقد كان محرك البحث لدينا سؤال تثيره هذه الآيات الكريمة عندما تُقدّم مجتمعة، سؤال مفاده: كيف يمكن أن نفهم أنّ الله خلقنا وأشهدنا على أنفسنا بأنه ربنا (وقد شهدنا على ذلك) وطلب منا أن نتذكر كل ذلك كما تشير الآيات في المجموعة الأولى وفي الوقت ذاته تشير الآية الكريمة في المجموعة الثانية أن الله قد أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً؟ فأين ذهب كل ذلك العلم؟

للخروج من هذا التناقض الظاهري الذي ربما قد يقع في أذهان البعض (مثلنا)، فقد قدّمنا الافتراء التالي الذي هو بلا شك من عند أنفسنا:

الافتراء: نحن نزعم الظن أن انتقال الإنسان من ظهر والده (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) واستقراره في بطن أمه (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) فترة من الزمن (تسعة أشهر) في ظلمات ثلاث ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: 6] كانت السبب الذي أدى بذلك المخلوق أن ينسى عهده الأول مع ربه ليخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً بعد أن كان الله قد علمه يوم أن خلَقه خلْقه الأول:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: 11]

وبعد أن كان الله قد نبّهنا في ذلك الموقف من مغبة أن ننسى هذا العهد الأول في يوم القيامة:

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف: 172]

فما كانت النتيجة أكثر من أن نخرج من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً. وكان ذلك تحولا في طريقة خلق الإنسان، فبعد أن كان بشراً أصبح إنسيا.

وقد زعمنا القول أنه لو لم يمر ذلك المخلوق بتلك التجربة، وخرج إلى الحياة بطريقة الخلافة (بشراً) التي كان الله قد اختارها لآدم وذريته في البداية، لما نسي العهد الذي قطعه على نفسه أمام ربه يوم خلقه الأول. ولكن كيف؟

سنحاول في هذه المقالة تقديم إجابتنا على هذا التساؤل سائلين الله تعالى أن يعلمنا الحق فلا نفتري عليه الكذب، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

أما بعد،

تطور الخلق: رحلة من البشرية إلى الإنسانية

افتراء من عند أنفسنا: نحن نزعم القول أنه في حين أن الله قد اختار أن يكون آدم وذريته بشراً، آثر آدم (مدفوعاً بمكيدة الشيطان) أن تكون ذريته أناسي، فنحن نفتري الظن أن الذي خلق من تراب هو بلا شك بشر ولكن الذي خلق من نطفة، فعلقة، الخ. فقد أصبح إنساناً، ولكن ما الفرق؟

للإجابة على هذا التساؤل لابد أولاً من التعرض بشيء من التفصيل لبعض المفردات المتقاربة التي ترد في كتاب الله خاصة مفردة الناس ومفردة الأناسي ومقارنة ذلك بمفردة البشر، لنطرح بعدها جملة من التساؤلات منها:

- ⇐ ما الفرق بين الناس والأناسي؟
- ⇐ ما الفرق بين الناس والبشر؟
- ⇐ ما الفرق بين الأناسي والبشر؟

سؤال: ما الفرق بين البشر من جهة والناس والأناسي من جهة أخرى؟

جواب: سنحاول الإجابة على هذا السؤال بطرح سؤال آخر غاية في الغرابة وهو: هل عيسى بن مريم من الناس؟

رأينا: كلا، عيسى بن مريم ليس من الناس. (أرجو أن لا تقتبس هذه العبارة خارج سياقها والانتظار لمعرفة ما ستؤول إليه الأمور بسبب مثل هذا الافتراء الذي نطرحه نحن في نقاشنا هذا).

سؤال: إذا كان عيسى بن مريم ليس من الناس كما تزعم، فمن هو إذاً؟ وأين الدليل على ما تزعم؟

جواب مفترى: نحن نظن أن عيسى بن مريم كان بشراً ولم يكن إنسيا (من الناس).

الدليل

نطلب من القارئ الكريم قراءة الآية الكريمة التالية جيداً وتدبرها من هذا الجانب ليتم ربط ما جاء فيها مع حقيقة خلق عيسى بن مريم:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: 13]

ما الذي يمكن أن نستنبطه – عزيزي القارئ- من هذه الآية الكريمة فيما يخص الناس؟

نتيجة كبيرة جداً: الناس مخلوقون من ذكر وأنثى، أليس كذلك؟

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ

وما الذي يمكن أن نستنبطه – عزيزي القارئ- من هذه الآية فيما يخص عيسى بن مريم؟ فهل خُلِقَ عيسى بن مريم من ذكر وأنثى؟ هل يستطيع يؤمن بالفكر الديني الإسلامي أن يزعم أن عيسى بن مريم قد خلق من ذكر وأنثى؟

نتيجة كبيرة جداً سيكون لها تداعياتها الخطيرة لاحقاً: مادام أن عيسى بن مريم لم يخلق من ذكر وأنثى فهو إذاً ليس من الناس.

ويمكن أن نؤكد صحة ما نزعم عندما نتدبر الآية الكريمة الأخرى التالية التي تصور مراحل خلق الإنسان من هذا الجانب:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥﴾ [الحج: 5]

فالناس – كما تبين الآية الكريمة- قد بدأ خلقهم من التراب، وهكذا كان خلق عيسى بن مريم (خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ)، ولكن المفارقة تكمن في أن عيسى بن مريم لم يمر بمراحل النطفة (ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ) والعلقة (ثُمَّ مِنۡ

عَلَقَةٍ) والمضغة (ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ)، فكيف تم خلق عيسى بن مريم؟ (وسنحاول التعرض لهذا الزعم في مقالات منفصلة خاصة بخلق عيسى بن مريم بحول الله وتوفيقه، فنسال الله أن تنفذ مشيئته لنا الإحاطة بشيء من علمه إنه هو السميع المجيب).

لو تدبرنا الآية الكريمة التالية التي تتحدث عن خلق عيسى بن مريم لوجدنا أن عيسى بن مريم لم يكن يوما نطفة، ولكن جل الذي حصل، فقد كان على النحو التالي:

- ﴿... خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: 59]

ولو تدبرنا هذه الآية الكريمة نفسها في سياقها الأوسع لوجدنا العجب العجاب، والدقة التي لا يمكن أن تصدر إلاّ من حكيم خبير:

- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: 59]

نعم، لم تحدث عملية الخلق بتلك الطريقة إلاّ لعيسى بن مريم ولآدم من قبله، لذا جاء الربط محكماً بين هذين المخلوقين بقضية طبيعة الخلق. وهذا ما يدعونا إلى تقديم الافتراء التالي:

افتراء من عند أنفسنا: آدم وعيسى بن مريم لم يكونا من الناس لأن طريقة خلقهم لم تمر بمرحلة النطفة فالعلقة فالمضغة، الخ. وكانت طريقة خلقهم قد مرت بمرحلتين فقط وهما:

1. من تراب " خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ "
2. كن فيكون " ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ "

ولو حاولنا مقارنة ذلك بما يحصل في طريقة خلق بقية الناس، لوجدنا الآية الكريمة التالية تصور الاختلاف بشكل لا لبس فيه:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ [غافر: 67]

لتكون مراحل خلق الناس جميعاً على النحو التالي:

1. من تراب " مِّن تُرَابٍ "
2. ثم من نطفة " ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ "
3. ثم من علقة " ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ "

نتيجة كبيرة جداً: هناك من خَلْق الله من مرّ خلقه بمرحلتين فقط (كآدم وعيسى بن مريم) وهناك من مرّ خلقه بأكثر من مرحلتين "كل الناس".

سؤال: فما الفرق بين المجموعتين؟

جواب: نحن نفتري الظن أن من مرّ خلقه بمرحلتين (كآدم وعيسى بن مريم) هم من كانوا بشرا ولم يكونوا من الناس، ولكن من مرّ بأكثر من تلك المرحلتين (فقد كان من البشر ولكنه انتقل إلى مرحلة الأناسي)

لذا نحن نتشابه مع آدم وعيسى بن مريم في مرحلة البشرية مادام أننا قد خلقنا أصلاً من تراب:

- ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ [الروم: 20]

ولكننا نختلف عنهم في الإنسانية، ففي حين أننا نحن دخلنا في مرحلة الإنسانية (النطفة فالعلقة)، لم يدخل آدم وعيسى بن مريم في تلك المرحلة وبقوا بشراً (كن فيكون)، وقد جاء ذلك صريحاً عند إخبار الله الملائكة بخلق آدم:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ٢٨﴾ [الحجر: 28]
- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ٧١﴾ [ص: 71]

وجاء ذلك صريحاً في قصة خلق عيسى بن مريم:

- ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ١٧﴾ [مريم: 17]

سؤال: من يكون من البشر؟

جواب: من خلق من تراب:

- ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ [الروم: 20]

سؤال: من يكون من الناس؟

جواب: من كان له أب وأم:

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ٣٣﴾ [لقمان: 33]

نتيجة مفتراة خطيرة جداً: لمّا خلق الله الخلق جميعاً وأودعهم في ظهور أبائهم (آدم) ثم تناقلوا بعدها في ظهور آبائهم لم يكن عيسى بن مريم من بينهم، فهو المخلوق الوحيد الذي لم يكن في ظهر أب له. لذا جاء التشابه والمقارنة بين عيسى من جهة وآدم من جهة أخرى:

- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران: 59]

لذا كان عيسى بن مريم بشراً ولم يصبح يوماً من الناس. وسنحاول أن نبيّن تبعات ذلك على طريقة حياة عيسى بن مريم العملية، خاصة في الطعام والشراب والحياة والوفاة والزواج وغيرها لاحقاً. ولكننا لا زلنا بحاجة أن نسهب قليلاً في التفريق بين البشر والأناسي في طبيعة الخلق وآلية الخلق.

الفرق بين البشر والأناسي

طريقة خلق البشر

تمر طريقة خلق البشر بمرحلتين فقط وهما:

1. التراب
2. كن فيكون

فلو بقي الخلق يتكاثرون بهذه الطريقة، لبقوا بشراً، ولما – نحن نفتري الظن- نسوا العهد الذي قطعوه على أنفسهم يوم أن خلقهم الله خلقهم الأول:

- ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف: 172]

وذلك ما نقصد بالتكاثر بطريقة الخلافة، فالله أراد لآدم وذريته أن يكونوا خلفاء، ولو لم يتمكن الشيطان من أن ينزع عن آدم وزوجه لباسهما لبقى التكاثر في الجنة يتم بطريقة الخلافة، ولكانت النتيجة أن بقي الخلق يتكاثرون كبشر فقط (انظر الجزء السابق من هذه المقالة).

آلية خلق البشر

لما كانت طريقة خلق البشر (كآدم وعيسى) تمت بطريقة الخلافة البشرية (من تراب ثم كن فيكون) كانت الآلية تتمثل في النفخ، فجاء النفخ جلياً في خلق آدم:

- ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر: 29]

وكذلك كان النفخ حاضراً في خلق عيسى بن مريم:

- ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: 91]

وربما لهذا السبب يحدث النفخ في الصور يوم يعود الناس إلى ربهم بعد الموت:

- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: 73]

فيخرج الناس من التراب بشراً "بكن فيكون"، فتذهب الأنساب بينهم، فلا يعود هناك والد ولا ولد، ولكن الجميع بشر منتشر:

- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: 101]

طريقة خلق الأناسي

تمر طريقة خلق الأناسي مراحل ثلاث:

1. التراب: " مِن تُرَابٍ "
2. النطفة: " ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ "
3. العلقة: " ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ "

فلما استطاع الشيطان أن ينزع عن آدم وزوجه لباسهما، اختلفت طريقة الخلق، فانتقلت من طور البشرية (خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) إلى طور الإنسانية (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ)، وأصبحت طريقة التكاثر هي الخلد أو الوراثة ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾ [البلد: 3]، وأصبح ذلك المخلوق إنساناً لأنه – نحن نفتري القول- نسي العهد الذي قطعه على نفسه أمام ربه، فأخرجهم ربهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً:

- ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: 78]

وزودنا بوسائط المعرفة (السمع والبصر والأفئدة) لنشكر ربنا، وربما لنستخدمها علنا نتذكر ذلك العهد الذي قطعناه على أنفسنا:

- ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: 172]

آلية خلق الأناسي

لما كانت طريقة خلق الأناسي كافة قد انتقلت من طريقة الخلافة البشرية إلى طريقة الخلد الإنسانية، أصبح هناك اختلاف في الآلية، فلم يعد النفخ ممكنا وحل محله التزاوج الجنسي (الجماع). فأصبح هناك والد وهناك ولد:

- ﴿۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: 189]

نتيجة مفتراة: لابد من التمييز بين المخلوقات التي هي بشرية خالصة (كعيسى بن مريم) والمخلوقات التي لم تعد بشرية خالصة بل كانت بشرية وأصبحت إنسانية (فهي بشرية إنسانية معاً).

سؤال: من هم المخلوقات التي كانت بشرية وأصبحت إنسانية؟ هل هم الناس أم الأناسي؟

الفرق بين الناس والأناسي

لابد من التأكيد على أن منهجيتنا تتسم على الدوام بضرورة التفريق بين الألفاظ مهما كانت متقاربة، فنحن نؤمن بضرورة التوقف عند الألفاظ دون تجويز ولا تغيير، فاللفظ مقصود بذاته لا يمكن أن يسد محله لفظ آخر مهما عظم التشابه بينهما، وسنحاول التمثيل على ذلك بالتوقف قليلاً عند مفردتي الناس والأناسي اللتان تردان في كتاب الله، وغالباً ما أشكل على العامة من مثلي التمييز بينهما، خاصة في قوله تعالى في الآيات الكريمة التالية من سورة الفرقان:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: 48-50]

فما الفرق بين مفردة الأناسي التي ترد في الآية 49 ومفردة الناس التي ترد في الآية 50؟

جواب: تدل الآيات الكريمة بأن الماء الذي ينزل من السماء تشربه الأناسي (وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا) ولكن الكفر عمل يقوم به الناس (فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا)، فما الفرق إذن بين الأناسي والناس؟

رأينا: نحن نظن أن مفردة الأناسي تعني كل من خُلِق من ذكر وأنثى بغض النظر عن جنسه (مذكراً كان أم مؤنثاً أو حتى من غير أولي الإربة) وبغض النظر عن عمره، ولكن مفردة الناس تعود فقط – نحن نفتري القول- على الذين بلغوا سن التكليف من الذكور (أي الذكور البالغين المكلفين بالعبادة)

الدليل

تعرضنا في أكثر من مقالة سابقة لنا لقسط كبير من هذه الجزئية، ومع ذلك فنحن نرى الحاجة هنا ملحة لإعادة بعض الخطوط العريضة خاصة ذات الصلة بمعنى مفردة الناس التي تعرضنا لها سابقاً لنقارن ذلك بما يمكننا أن نخرج به من استنباطات جديدة حول مفردة الأناسي، ومن ثم إسقاط ذلك على المقارنة بين البشر من جهة والناس والأناسي من جهة والبشر من جهة أخرى.

أما بعد،

غالباً ما فرّقت لغات الأرض الألفاظ بناء الجنس، فيأتي الحديث مفرقا بين المذكر والمؤنث خاصة عندما ترد لفظة خاصة بالمذكر وأخرى مقابلة لها تشير إلى المؤنث كما في الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾ [الأحزاب: 35]

لتخرج الصورة على الشكل التالي:

مذكر	مؤنث
الْمُسْلِمِينَ	وَالْمُسْلِمَاتِ
وَالْمُؤْمِنِينَ	وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَالْقَانِتِينَ	وَالْقَانِتَاتِ
وَالصَّادِقِينَ	وَالصَّادِقَاتِ
وَالصَّابِرِينَ	وَالصَّابِرَاتِ
وَالْخَاشِعِينَ	وَالْخَاشِعَاتِ
وَالْمُتَصَدِّقِينَ	وَالْمُتَصَدِّقَاتِ
وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ	وَالْحَافِظَاتِ
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا	وَالذَّاكِرَاتِ

وهنا نتوقف لنسأل: هل يظهر التفريق بين المذكر والمؤنث في اللغة (أي لغة) دائماً على هذا النحو من التقابل الثنائي بين لفظ المذكر ولفظ المؤنث؟

حقيقة لغوية: لا يمكن أن نجد في أي لغة في الدنيا هذا التقابل متوافر لكل مفردة من مفرداتها، فأنا لا أعرف ما مذكر كلمة "نملة" في العربية، ولا أعرف مذكر كلمة شجرة (هذا إن كانت كلمة شجرة أصلاً مؤنث)، ولا أعرف مذكر كلمة طاولة ولا مؤنث كلمة كرسي، وهكذا. ولتوضيح الفكرة التي نجهد أنفسنا للوصول إليها دعنا نطرح مثلاً السؤال التالي: ما مؤنث مفردة "الكافرين"؟ فهل لمفردة الكافرين – مثلاً- مفردة مقابلة لها تستخدم لتدل على المؤنث كما الحال بالنسبة للمفردات الواردة في الجدول السابق؟

مذكر	مؤنث
كافرين	؟

جواب: لو تفقدنا القرآن الكريم لما وجدنا أن مفردة الكافرين ينطبق عليها ما ينطبق على مفردة المؤمنين أو الصائمين أو القانتين أو الخاشعين كما ورد في الجدول الأول السابق. فليس هناك في كتاب الله مفردة مثل "الكافرات" كما الحال بالنسبة للمؤمنات والصائمات والمتصدقات وغيرها.

سؤال: فما مؤنث مفردة الكافرين (حسب النص القرآني)؟

رأينا: نحن نزعم الظن أن مؤنث مفردة الكافرين هي مفردة "الكوافر" كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠﴾ [الممتحنة: 10]

لتصبح الصورة على النحو التالي:

مذكر	مؤنث
كافرين	كوافر

إن مثل هذه الحالات تدفعنا إلى التفكر ملياً بالألفاظ قبل إصدار الأحكام التي لا شك ستعاني من التشوهات متى كانت مبنية على أفهام غير سليمة يدعمها الدليل القاطع من كتاب الله. والمفردة التي نود أن نخوض فيها هنا من جانب التذكير والتأنيث هي مفردة الناس في محاولة منا لتفريقها عن مفردة الأناسي، فالمفردتان (الناس والأناسي) وردتا في الآيات الكريمة التي ذكرناها سابقاً ونعيدها هنا مرة أخرى للتركيز عليها من هذا المنظور:

- ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ٤٩﴾ [الفرقان: 49]
- ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٥٠﴾ [الفرقان: 50]

وقد زعمنا القول أن مفردة الناس تخص الذكور فقط بينما مفردة الأناسي فتخص الذكور والإناث معاً، ولكن قبل المضي قدماً للخوض في جانب التذكير والتأنيث للمفردتين، دعنا نطرح سؤالاً آخر يخص المفردتين، والسؤال هو: ما مفرد كلمة أناسي وما مفرد كلمة الناس؟

جواب: قد لا نختلف كثيراً في أن مفردتي الناس والأناسي تدلان على الجمع، أليس كذلك؟ فما المفرد لكل واحدة من هذه الألفاظ؟

رأينا: نحن نعتقد أن كلمة "الإنسان" هي مفرد كلمة الناس، بينما تفرد كلمة الأناسي – نحن نظن- على "إنسيا" كما في الجدول التالي:

المفرد	الجمع
إنسان	الناس
إنسيا	الأناسي

الدليل

دعنا نقرأ الآيات الكريمة التالية التي تتحدث عن خلق الإنسان للتدليل على صحة زعمنا هذا:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: 26]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: 12]
- ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: 7-8]
- ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: 14]

ونقارن ذلك بالآيات الكريمة التي تتحدث عن خلق الناس:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج: 5]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: 13]

إن الحقيقة الصارخة التي نجدها في كتاب الله في هذا الصدد تتمثل في أنه عندما يأتي الحديث عن الخلق من طين ترد مفردة الإنسان فقط، أما عندما يأتي الحديث عن الخلق من طين فمن نطفة فمن علقة (أي الخلق من ذكر وأنثى) فترد مفردة الإنسان ومفردة الناس، لماذا؟

الإنسان (1)	خلق من طين ثم كن فيكون	﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ١٤﴾ [الرحمن: 14]
الإنسان (2)	خلق من نطفة ثم من علقه	﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ٢﴾ [الإنسان: 2]
الناس	خلقوا من طين ثم من نطفة ثم من علقة	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ... ٥﴾ [الحج: 5]

افتراء من عند أنفسنا: نعم، إننا نظن أن القول أن الإنسان خلق من طين هي عودة على إنسان خلق من طين فكان بشراً كحالة أدم وحالة عيسى بن مريم (وهم البشر):

- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ [الروم: 20]

أما سلالة آدم من بعدة فقد بدأ خلقهم من طين، ولكن ذلك الخلق تحول ليصبح بعد ذلك من سلالة من ماء مهين (وهم الناس: ومفردها أيضاً إنسان). ويظهر هذا التحول جلياً في قوله تعالى:

- ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ٨﴾ [السجدة: 7-8]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ١٣﴾ [المؤمنون: 12-13]

لا شك عندنا أن هذه الآيات الكريمة التي تتحدث بشكل جلي أن خلق الإنسان من طين تثير لدينا تساؤلات كبيرة بخصوص زوج آدم (أو ما يعرف الناس باسم حواء)، فلندقق بالآية الكريمة جيداً ثم لنطرح التساؤلات حول خلق حواء، زوج آدم:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ... ٥﴾ [الحج: 5]

تساؤلات: هل خلقت حواء فعلاً من تراب؟ وهل خلقت من نطفة فعلقة فمضغة؟

رأينا: لقد حاولنا في مقالات سابقة لنا أن نثبت زعمنا بأن حواء (وجنس النساء كلهن) ليسوا من الناس أصلاً؟

الدليل

ربما لا يعرف الكثيرون أن مفردة الناس تدل أصلاً على المذكر، وتمت تعديتها لتشمل المذكر والمؤنث (أي الرجال والنساء) في كلامنا نحن أهل اللغة العربية، فأنت عندما تتحدث عن الناس في كلامك، فإنك – دون أدنى شك- تقصد الذكور والإناث معاً، والمتلقي عندما يسمع مفردة الناس يظن أن الحديث يشمل الذكور والإناث معاً، أليس كذلك؟ ولكن السؤال الذي لم نرى أن لا مناص من طرحه في أكثر من موقع لما له من تداعيات خطيرة على العقيدة هو: هل هذه التعدية صحيحة من منظور القرآن الكريم؟ هل مفردة الناس تشمل الذكور والإناث في النص القرآني؟

جواب: لقد افترينا القول في مقالات سابقة لنا أن مفردة الناس في النص القرآني لا تشمل الإناث إطلاقاً، وهي مفردة تخص البالغين المكلفين من الذكور فقط، فالنساء حسب النص القرآني – نحن نزعم الظن- ليسوا من الناس، ولكن أين الدليل على هذا الزعم؟

الدليل

نحن نرى أن هناك آيات كريمة كثيرة في كتاب الله ربما يمكن استنباط هذا الرأي منها، والقارئ الكريم مدعو لمراجعة ما جاء في مقالاتنا تحت عنوان: ثلاثية المرأة، ونكتفي هنا بتناول بعض الأدلة على عجل، قال تعالى:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]

تدبر –عزيزي القارئ – مفردات الآية الكريمة جيداً، فالله سبحانه يقول "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ"، أليس كذلك؟ فمن هم الناس الذين زين لهم حب الشهوات؟ هل هم الذكور والإناث معاً؟ أم هل هم الذكور فقط؟

إن تتمة الآية الكريمة تبين لنا بما لا يدع مجالاً للشك أو التأويل أن المقصود هم الذكور فقط؟ فالله سبحانه يقول:

- زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ...

فكيف إذاً يستقيم المعنى أن تكون المرأة شهوة للمرأة؟ فإذا كانت المرأة من الناس، فهناك مجال من التأويل أن تكون المرأة شهوة للمرأة، (كأن يصبح معنى الآية الكريمة "زين للنساء حب الشهوات من النساء") وهو ما لا يمكن أن يتقبله الفكر الإسلامي.

للخروج من هذا المأزق، نقول أن مفردة الناس لا تشمل الإناث، وعندها لا تكون النساء شهوة للنساء، وإنما النساء شهوة للناس (أي الذكور)، ولكن ذلك لا يشمل- بلا شك- الذكور جميعاً، وإنما الذكور

الذين أصبحت النساء شهوة لهم، وهم بالتأكيد من بلغ الحلم، لذا نجد الدقة المتناهية في الآية الكريمة لتبين أن الشهوات للناس تشمل النساء وكذلك البنين، فالأطفال ليسوا كذلك من الناس، فالذكر يصبح من الناس متى بلغ الحلم، لذا نفهم أنّ خطاب التكليف من الله جاء موجهاً دائماً للناس، ونحن نعلم أن الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم غير مكلفين وغير معنيين بالخطاب الرباني عندما يأتي موجهاً على صيغة "يا أيها الناس":

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: 21]

(للتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالاتنا السابقة في ثلاثية المرأة: جدلية الذكر والأنثى، زواج المتعة وتعدد الزوجات)

نتيجة: الناس هم البالغون من الرجال الذين أصبحت النساء شهوة لهم

سؤال: ماذا عن النساء والأطفال؟

جواب: هم جزء من الأناسي وليس الناس

سؤال: من هم الأناسي؟

جواب: هم الرجال والنساء والأطفال وهو ما يقابله في اللغة الانجليزية مثلاً مفردة people، ولكن ليس هناك في اللغة الانجليزية مفردة مشابهة لمفردة الناس الخاصة بالبالغين المكلفين من الرجال.

سؤال: مادام أن مفردة الناس تعني الرجال، فلم نحتاج إليها إذن؟ لم لا يكون هناك مفردة الرجال وكفى؟

جواب: لأن الرجال حسب النص القرآني على نوعين: هناك الرجال وهناك الرجال غير أولي الأربة:

- ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: 31]

سؤال: هل هناك مفردة في العربية وردت في النص القرآني تجمع الذكور والإناث معاً؟

جواب: نعم، هناك مفردة الأناسي، فالأناسي هم مجموع الذكور والإناث، ومفردها "إنسيا" وليس إنسان

الدليل:

عندما طلب زكريا آية من ربه لتكون دليلاً على حقيقة حمل زوجته وقد بلغ من الكبر عتيا، جاء قول الحق ليمنع زكريا عن الكلام مع "الناس":

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: 41]
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ [مريم: 10]

بينما عندما عادت مريم تحمل طفلها وقد وضعته بطريقة يصعب على من كان متواجداً من ذكر وأنثى تصديق تلك القصة جاء قول الحق ليمنعها عن أن تكلم "إنسيا":

- ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: 26]

ونحن نظن أنه في الوقت الذي كانت مشكلة زكريا تكمن في مقارعة الرجال (الناس)، كانت مشكلة مريم تخص الجميع من الذكور والإناث، الصبيان والبالغين على حد سواء.

وبعد هذا الشرح المطول للتفريق بين مفردتي الناس والأناسي، دعنا نعود إلى الآيتين الكريمتين السابقتين اللتان تظهران التباين في الاستخدام بين مفردة الناس ومفردة الأناسي:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: 48]
- ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان: 49]
- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: 50]

ففي حين أن الماء الذي أنزل من السماء يشربه الأناسي (الذكور والإناث البالغين وغير البالغين) إلا أن الكفر (عكس الإيمان) هو عمل يقوم به الناس (من بلغ سن التكليف من الذكور).

ولكن ما الذي يهمنا من هذا النقاش؟

إن ما يهمنا في هذا النقاش هو طبيعة الخلق وآليته، فلننظر إلى الآيات الكريمة التي تخص خلق زوج آدم حواء ما دام أننا افترينا القول أن النساء (كحواء) ليسوا من الناس أصلاً:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: 1]

ولننظر إلى الآيات الكريمة التالية التي تتحدث عن خلق النساء بشكل عام:

- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل: 72]

- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: 21]
- ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: 11]

ألا تدل هذه الآيات الكريمة –بشكل لا لبس فيه- أن النساء قد خلقن من النفس (وليس من الطين كحالة البشر)؟ والحالة كذلك نحن لن نتوقف عن الزعم بأن النساء ليسوا من الناس وهم ليسوا من البشر كذلك.

نتائج كبيرة وخطيرة جداً

⇐ تم خلق آدم وعيسى بن مريم كبشر (من تراب ثم كن فيكون)
⇐ تم خلق النساء من أنفسنا
⇐ تم خلق الناس من تراب (فكانوا بشرا) وتحول خلقهم ليصبح من نطفة ثم من علقة (فكانوا أناسا)

والجدول التالي يبين تصورنا (الخاطئ بلا شك) لطبيعة الخلق:

آدم وعيسى بن مريم (بشراً)	من تراب ثم كن فيكون
الناس (الذكور) (كانوا بشراً من طين أصبحوا أناسا من سلالة من ماء مهين	من تراب ثم من نطفة ثم من علقة
النساء (لم يكونوا بشرا فخلقوا من أنفسنا وأصبحوا من الأناسي من سلالة من ماء مهين)	من أنفسنا

إن هذه الافتراءات ستنقلنا إلى سلسلة مقالات جديدة تخص خلق عيسى بن مريم. فنسأل الله تعالى أن يأذن الإحاطة بشيء من علمه، فلا نفتري عليه الكذب، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

وللحديث بقية

المدّكرون: رشيد سليم الجراح، علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح،
9 آب 2012
مركز اللغات، جامعة اليرموك، الأردن



بداية الخلق

الجزء الرابع



الجزء الرابع: لماذا يدفن الناس موتاهم؟

تختلف الثقافات، فتختلف الطقوس والعادات والتقاليد، وغالباً ما كان الدين محركاً أساسياً في هذا الاختلاف. فتظهر في المجتمعات ذات الأصول الدينية المتنوعة عادات وتقاليد مختلفة حتى للفعل الواحد، فلا تتزوج كل شعوب الأرض بنفس الطريقة، ولا تأكل أو تلبس أو تتواصل أو تعمل بنفس الأسلوب والطريقة، والمنطق نفسه ينطبق على عادة التخلص من جثة الإنسان بعد موته، فبالرغم أن الهدف واحد، إلا أن الأسلوب أو الطريقة تختلف من موطن إلى آخر، فقد اختارت الشعوب المختلفة طرقاً متنوعة لتتخلص من جثة من توفاه الله بالموت، فالشعوب ذات الميراث اليهودي والمسيحي والإسلامي مثلاً تعمد إلى الدفن في الأرض لتتخلص من الجثث، ولكن هناك (على مر العصور) بالمقابل عدد لا بأس به من الثقافات التي لا تلجأ إلى هذا الأسلوب لتتخلص من جثث موتاهم، فمنهم من يقوم بتحنيط الجثة، ومنهم من يحرقها، ومنهم من يلقي بها في قاع البحار، ومنهم من يقدّمها وليمة طازجة للطيور والحيوانات المفترسة في البراري، وهكذا.

وهنا يبرز التساؤل التالي: أي الطرق أفضل للتخلص من جثة الميت؟ ولماذا؟

رفض التعليلات السابقة

إن الجواب على مثل هذا التساؤل غالباً ما كان مدفوعاً بالعادة، فأصحاب كل طريقة يرون أنها هي الطريقة الأمثل، وغالباً ما انتقدوا أصحاب الطرق المخالفة، ولكن الجدير بالانتباه أن هذا النقد لم يكن (في أغلب الأحيان) مبنياً على أساس ثابت يرضى الجميع بتقديم الدليل والحكمة من التشريع، أو حتى يسد رمق الطامع في المعرفة، فلو وجّه هذا السؤال إلى أهل الثقافات التي تدفن الموتى، لربما ظنوا أن هذه هي الطريقة الأمثل لأن الله – حسب معتقدهم- قد أمرهم بها، ولكنهم في الوقت الذي ينسبون الأمر إلى ربهم لا يقدّمون لأنفسهم ولغيرهم جواباً مقنعاً يبرر عقيدتهم هذه. فغالباً ما سوّقوا منطقهم القائل أن في طريقة الدفن هذه حفظاً لكرامة "المتوفى"، ولكن المنطق نفسه يسوّقه من يتخذ من الحرق طريقة للتخلص من الجثث، فهؤلاء يظنون أن هذا بالضبط ما أمرهم به ربهم، لا بل ويروجون للمنطق القائل أن في حرق الجثث حفظاً للبيئة، و(ربما) حلاً لمشكلة السكن في المناطق المكتظة التي قد تضيق بالأحياء (ناهيك عن الحيز الذي تشغله جثث الأموات)، ويقدم أهل الثقافات التي تقدم موتاها ولائم للطيور والحيوانات المفترسة الأسباب نفسها، فهذا – حسب معتقداتهم- ما أمرهم به ربهم، وهم بذلك يحافظون على التوازن البيئي لتبرير فعلتهم، ويزيدون على ذلك بأن في أجساد موتاهم منفعة للكائنات الأخرى، فهم يسوقون الدليل أن الجسد الذي يدفن في باطن الأرض تأكله ديدان الأرض، ولكن الجسد الذي يقدم للطيور والحيوانات المفترسة تأكله النمور والأسود والنسور والصقور، ولا شك أن وقوع جسدك بين فكي أسد فيه كرامة وعزة أكثر من تلك التي تحصل لجسدك إن هي أكلته ديدان وقوارض الأرض – حسب رأيهم بالطبع.

وقد كان في تحنيط الأموات عند المصريين فلسفة لا تخلو من طابع الكرامة والتكريم للمتوفى، وقد ظهر –بسبب التقدم التقني- تيار جديد يدعو إلى حفظ أجساد الأموات في برادات (ثلاجات) خاصة، أو بمواد كيميائية حافظة، تحافظ على الجسد من ديدان الأرض أو حتى أسود البرية.

وبعد هذا السرد يبرز التساؤل نفسه مرة أخرى: أي الطرق أنجع؟ ولماذا؟

نظرة جديدة

إننا ننوي في مقالتنا هذه تقديم تعليل بسيط لقيام الثقافات ذات المرجعية الدينية (كاليهودية والمسيحية والإسلامية) بطقوس دفن الأموات في التراب، وسنحاول تقديم التبرير الديني الإسلامي – كما نفهمه نحن- لهذا الطقس الديني على وجه التحديد من كتاب الله الكريم، ومحرك البحث لدينا سؤال واحد وهو: لم يدفن المسلمون موتاهم في التراب؟

أما بعد،

لعل جلّ الفكر الإسلامي ممثلاً بفرقه وطوائفه لا يختلف في هذا المجال، فالجميع يرى أن الدفن في التراب هي الوسيلة الأمثل والوحيدة للتخلص من جثث الأموات، ولكنني أظن أن أصحاب هذا الفكر - وإن اتفقوا على الطريقة- قد أخفقوا في تعليل هذا السلوك لأنفسهم أولاً ولغيرهم ثانياً، وهنا سنحاول تقديم التبرير كما نستنبطه من كتاب الله العزيز، فنحن نظن أن هناك تبريراً شافياً كافياً في كتاب الله لهذا الطقس الديني. فما هو؟

بادي ذي بدء، إننا نفهم أن دفن الأموات في التراب كان – حسب النص القرآني- هو شريعة الله للتخلص من الجثث منذ بدء الحياة البشرية على وجه المعمورة، وقد بدأت هذه القصة مع الوفاة الأولى على الأرض يوم أن قتل ولد آدم أخاه، فبعد أن طوّعت له نفسه قتل أخيه، لم يعرف ما يفعل بجثته، فبعث الله ذاك الغراب الذي يبحث في الأرض ليريه كيف يواري جثة أخيه في التراب، وقد جاء في كتاب الله التصوير الكامل لذاك المشهد الأرضي على النحو التالي:

- ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: 30-31]

لقد تعلم ذاك الرجل (والبشرية من بعده) كيف يتخلص من جثة المتوفى، ومما لا شك فيه أن هذه القصة القرآنية تدلنا على أن الفطرة الإنسانية والحيوانية قد جبلت على مثل هذا السلوك فتقبلته كأمر رباني، فولد آدم لم يتردد أن يرى في هذا التعليم (حتى وإن كان من الغراب) أمراً ربانياً وتوجيها إلهياً، لذا لم يتلكأ في أن يتخلص من جثة (سوءة) أخيه على تلك الشاكلة (وهنا نتوقف للحظة لندعو القارئ الكريم إلى الرجوع إلى مقالتنا السابقة تحت عنوان أين كانت جنة آدم ومقلاتنا تحت عنوان "علم اللغة" ليتعرف على

معنى السوءة كما نفهما من النص القرآني، فلقد أخطأ كثير من أهل العلم –في رأينا- عندما ظنوا أن السوءة تعني العورة، فهذه الآية الكريمة تبين بما لا يدع مجالاً للتأويل أن السوءة تعني الجسد بأكمله، فولد آدم يريد التخلص من سوءة أخيه، أي من كامل جسده وليس فقط من عورته، وربما يفسر لنا هذا الظن كيف بدأت سوءة آدم وزوجه يوم أن أكلا من الشجرة- للتفصيل في هذا الموضوع يرجى قراءة المقالة السابقة)

المهم في طرحنا هذا أن التخلص من جثة المتوفى بالدفن قد بدأت - حسب النص الديني القرآني- من هناك، وظهر هذا السلوك جلياً في تعاليم الديانات السماوية التي لا زالت بعض تشريعاتها قائمة كاليهودية والمسيحية والإسلامية.

ولكن هل كانت كل شعوب الأرض تعمد إلى هذه الطريقة للتخلص من الجثث؟ ولماذا انحرفت تلك الشعوب عن هذا النهج الإلهي؟

لا شك أن شعوب الأرض قد نوّعت في طريقة تخلصهم من الجثث، والقرآن الكريم يقدم لنا بعض سلوكيات تلك الشعوب، ونحن نجد من الضروري أن نقدم منها مثالاً واحداً هنا على الاختلاف الذي حصل عند شعوب الأرض بعد قصة ابني آدم، ومثالنا يسلط الضوء على ما كان يفعل ملوك المصريين القدماء (وليس فراعنة المصريين) بجثث موتاهم، ونقصد بملوك المصريين أولئك الذين كانوا يحكمون أرض مصر قبل الفراعنة، وهم من عاصرهم نبي الله يوسف في أرض مصر على وجه التحديد، فنحن لا ننسى قصة يوسف مع صاحبيه في السجن، فكان نصيب أحدهم على النحو التالي:

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]

فنحن نفهم من هذا السياق القرآني أن تلك الثقافة كانت تتخلص من جثة المتوفى بإلقائها للطيور لتأكلها، فقد أخطأ البعض – حسب ظننا- عندما فهم أن في صلب الرجل زيادة وقسوة في العقاب له، فنقول كلا، لقد كان عقاب الرجل يتمثل في قتله (إنهاء حياته)، فمما لا شك فيه أن ملك مصر في عهد نبي الله يوسف كان – في رأينا- حاكماً عادلاً، وليس أدل على عدله من قصته مع يوسف نفسه، فلا أظن أن ملكاً كذاك الرجل يمكن أن يكون فيه من السوء لدرجة أن ينتقم من الموتى حتى بعد وفاتهم، والقص القرآني لتفسير الرؤيا لا يظهر سوء معاملة من الملك، وإنما عدلاً وجزاءً على ما فعل الرجل.

ثم لا بد من التنبيه إلى أمر غاية في الأهمية وهو أن الطير لا تأكل من رأس الرجل إلا بعد موته، فحتى لو صلب الرجل فترة طويلة من الزمن، فإن الطيور (كل الطيور كما يظهر من النص القرآني) لن تتقدم إلى جثته لتكون وليمة لها إلا بعد أن تخرج منها الحياة، فالطير لا تتقدم من الأجساد ما دامت الحياة تدب فيها، وإلاّ لأصبح الناس فريسة سهلة للطير حتى وهم يسيرون على أقدامهم على الأرض، ولكن قضت سنة الله وتدبيره أن لا تتقدم الطير لتأكل من الجسد إلا بعد أن تنتهي منه الحياة، إن هذا يدلنا على أن القصاص من الرجل كان يتمثل في إنهاء حياته، وهنا يبرز التساؤل عن سبب صلبه لتأكل الطير منه بعد ذلك.

إننا نظن أن السبب يتمثل بأن تلك الثقافة كانت على عادة التخلص من جثث الأموات بأن تلقي بها إلى الطير لتأكلها. ولا أخال أنهم غفلوا عن موضوع الكرامة عند موتاهم، فهم يقدموا الرؤوس للطير لتأكلها (فأن يأكل الطير من رأسك – عند هؤلاء القوم- خير لك من أن تأكل الديدان كل جسدك في باطن الأرض). ولا أخال أن فكرة ذهاب الأرواح بعد الموت لتستقر في حواصل الطيور (كما تصورها بعض الثقافات القديمة هي بعيدة عن هذا القصد عند من كان يقدم رأس المتوفى لتأكل الطير منه، فلا شك أن الروح في الثقافات القديمة تسكن الرأس، فهو العضو الأهم الذي إذا ما قطع انتهت الحياة، لذا فعندما يقوم الطير بالأكل من تلك الرؤوس فإن في ذلك دلالة على انتقال الروح لتسكن محلقة في السماء في حواصل الطيور. (للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه). والمدقق في اللفظ القرآني يجد بعض الغرابة في التصور، فنبي الله يوسف يقول للرجل:

- ﴿... وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ... ﴿٤١﴾﴾ [يوسف: 41]

فهو إذاً لم يقل للرجل بأن الطير ستأكل رأسه كله، ولكن الطير ستأكل "من رأسه"، فما هو الشيء الذي ستأكله الطير من رأسه؟ وكيف سيضمن أن الطير لن تأكل رأسه كله أو حتى من بقية جسده؟ وبكلمات أكثر دقة نسأل: لماذا جاء الوصف على نحو أن الطير ستأكل فقط "من رأسه"؟

رأينا المفترى: إننا نظن أن تلك الثقافات كانت تظن أن في الموت انتقال للروح (الساكنة في الرأس) إلى حواصل الطيور لتنقلها إلى السماء، فالطيور هي الكائنات الوحيدة القادرة على الذهاب إلى هناك حسب تعاليمهم كما يمكن أن يستقصوها من مشاهداتهم الحسية البدائية.

إن مراد القول أن الثقافات على تنوع معتقداتها تسعى جميعاً إلى هدف واحد وهو فهم ماهية الموت واستقرار الروح بعد خروجها من الجسم، فهم يبحثون عن سر الحياة الذي ما أن ينفذ من الجسم حتى يصبح جسداً هامداً. فالحياة – كما يرونها- تدب بالجسم فيبقى متحركاً حياً، وما أن تغادره الروح حتى يصبح جسداً لا قيمة له، يتطلب التخلص منه.

نحن نستخدم هنا مفردة الروح بشكل خاطئ فقط لأننا نتحدث عن الفهم الشعبي للحياة والموت. أما في التصوير القرآني فإننا نعتقد أن الحياة تنتهي بانتقال النفس (وليس الروح) مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: 42]

وهذا ما سنتعرض له في مقالات قادمة بحول الله وتوفيقه.

وهنا – كعادتنا المعهودة- نجد لزاماً التوقف للحظات للنظر مليّا في تنوع مفردات القرآن الكريم التي تدعونا إلى التميز والتفريق بينها، فلربما تحصّلت لنا من خلال ذلك فكرة تسعفنا في فهم ماهية الدفن وآلية البعث يوم القيامة.

ما الفرق بين الجسد والجسم؟

لقد ورد في كتاب الله لفظتان تصفان البناء الفيزيائي للإنسان وهما: الجسد والجسم، فما الفرق بينهما؟

نحن نظن أن الفرق يتمثل في وجود أو عدم وجود الروح (أو بكلمات أدق النفس) في ذاك البناء، فعندما تكون الروح غير موجودة فيه، فذاك يصبح جسداً لا بد من التخلص منه. ولكن إن كانت الروح لا زالت دابّة فيه، فذاك يسمى جسم لا يمكن التخلص منه. وسنسوق الدليل على زعمنا هذا من كتاب الله الكريم، فها هو السامري يخرج لقومه عجلاً جسداً وليس جسماً، لأنه بلا شك لا يستطيع أن يبث الحياة فيه، لذا جاء السياق القرآني ليؤكد هذه الفكرة عندما أكملت الآية على نحو "أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ"

- ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾ [الأعراف: 148]
- ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨﴾ [طه: 88]

سنتحدث بحول الله وتوفيقه في مقالات قادمة عن هذا العجل وعن خواره، لنطرح عندها السؤال التالي: ما معنى أن يكون لذاك العجل خوار؟ ولم لم يكن له صوتاً كالحمار مثلاً:

- ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان: 19]

لذا فالله اسأل أن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه حتى لا نكون كـ أولئك النفر من بني إسرائيل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها فاستحقوا عن جدارة أن يشبههم الله بالحمار الذي يحمل أسفارا:

- ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥﴾ [الجمعة: 5]

فحتى وإن كان في ذلك الجسد خوار، إلا أن ذلك لم يكن بسبب وجود الروح فيه، وإنما حصل الخوار بآلية أخرى لا تنم عن وجود الحياة في ذاك الجسد، وبكلمات بسيطة فإننا نقول أن السيارة التي تصدر صوتاً لا تفعل ذلك بسبب وجود روح فيها، فهي ليست أكثر من "جسد"، وتتأكد الفكرة في قوله تعالى:

- ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨﴾ [الأنبياء: 8]

فالأجساد لا تحتاج إلى الطعام ما دامت الروح غير موجودة فيها، وكان ذاك بالضبط ما حصل مع سليمان يوم فتنته:

- ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤﴾ [ص: 34]

وبالمقابل فإن جميع السياقات القرآنية التي وردت فيها لفظة الجسم تدل على أن الروح دابة فيها، فها هو طالوت حي يرزق، قوي بعلمه وبجسمه:

- ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧﴾ [البقرة: 247]

وها هم المنافقون يتمتعون بأجسام قوية البنية والتركيب لدرجة أنها تعجب الناظر إليها:

- ﴿۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤﴾ [المنافقون: 4]

فالتركيب الفيزيائي للإنسان يتحول من حالة الجسم (النابض بالحياة) إلى حالة الجسد (الفاقد للحياة) عند الموت، فعندما يكون الإنسان جسماً نابضاً بالحياة، فهو – لا شك- يسرّ الناظرين ويحتاج إلى الطعام وإلى كل مقومات الحياة، ولكن عندما تغادر الروح ذلك الجسم ينقلب ليصبح جسداً لا يكلم الناس ولا يهديهم ولا يعجب الناظرين، وهنا تكون الحاجة ملحّة للتخلص من ذلك الجسد بطريقة ما، وهنا يبرز التساؤل الذي طرحناه منذ البداية وهو: ما هي آلية التخلص من الجسد المثلى؟ ولماذا؟

التعليل

إننا نظن أن آلية التخلص من الجسد هي الدفن وذلك لسبب بسيط وهو أن جميع الشرائع التي تتخذ من الدفن وسيلة للتخلص من الجثث تؤمن بقضية البعث بعد الموت، لذا نحن نظن – مفترين القول بالطبع- أن الله قد بعث الغراب ليري الإنسان كيف يتخلص من أجساد البشر بالدفن ليس لفائدة دنيوية (كما صوّرها معظم من تصدوا لتفسير فلسفة الدفن)، وإنما لهدف أخروي يتعلق ببعث الناس من قبورهم للحساب. ولكن كيف يكون ذلك؟

أما بعد،

لا شك أن جميع الشرائع السماوية تؤمن بقضية البعث بعد الموت (resurrection)، وتؤمن أن تلك الأجساد التي خرجت منها الروح ستعود أجساماً مرة أخرى بعد أن تعود إليهم أرواحهم (أنفسهم) يوم البعث والنشور، ولكن المهم في هذا المجال هو البحث في آلية البعث تلك، ليتم ربطها بعد ذلك مع قضية دفن الموتى في التراب.

فلقد تصدرت فكرة البعث من القبور المشهد في كثير من السياقات القرآنية:

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: 6-7]
- ﴿۞أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩﴾ [العاديات: 9]

فالمدقق في السياقات القرآنية يجد لزاماً الفهم أن البعث يتم لمن في القبور، وهنا يدركنا سؤال لا مناص منه وهو: وماذا عن الذين لم يدفنوا في القبور؟ كيف سيتم جمعهم؟

إن من أبجديات عقيدتنا الدينية أن الله لن يترك أحد راقداً حتى لو كان في بطن الحوت في قعر البحر، فالله يصور لنا هذا المشهد يوم أن دخل ذو النون في بطن الحوت:

- ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ۝١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤٤﴾ [الصافات: 142-144]

فهو لا شك مبعوث في ذلك اليوم حتى لو بقي في بطن الحوت ولم يقذف إلى العراء، فالله قد تعهد أن لا يغادر منهم أحدا:

- ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ۝٤٧﴾ [الكهف: 47]

ولكن كيف إذاً سيتم بعث من لم يدفن في الأرض؟

إنّ المدقق في النص القرآني التالي يجد فيه شيئاً من الغرابة يتمثل في أن الله يثبت إمكانية بقاء الرجل في بطن الحوت حتى يوم البعث:

- ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ۝١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤٤﴾ [الصافات: 142-144]

وهنا يبرز سؤالنا التالي: كيف سيبقى ذو النون في بطن الحوت حتى يوم يبعثون؟ ألم يكن ليهلك ذو النون في بطن الحوت؟ ثم، ألم يكن سيهلك الحوت نفسه وينتهي؟ كيف إذاً سيبقى ذو النون في بطنه إلى يوم يبعثون كما تؤكد الآية الكريمة؟

إن هذا التساؤل يثير تساؤلات أخرى: إننا نعلم أن الناس سيخرجون من الأجداث (القبور)، ولكن ألم تكن ديدان الأرض قد انقضّت على أجسادهم وأهلكتها؟ ألم تهلك الديدان نفسها؟ فكيف بأجسادهم ستخرج مرة ثانية؟ ومن أين ستخرج ما دام أنها قد هلكت؟

إن المخرج من هذا المأزق موجود – برأينا- في كتاب الله، ويتمثل في فهم آلية خروج الناس من أجداثهم، قال تعالى:

- ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾ [يس: 51]

إن من أبجديات الفكر الديني الإسلامي هو الاعتقاد بخروج الناس من قبورهم (مرقدهم) يوم ينفخ في الصور:

- ﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف: 99]
- ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [طه: 102]
- ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل: 87]
- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: 68]
- ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [النبأ: 18]

وعند التعرض لقضية بعث الناس بعد موتهم في السياقات القرآنية نجد أن جميع تلك السياقات تثبت لنا أن الإنسان لا زال موجودا في الأرض، ولكن أي شيء من الإنسان لا زال موجود؟

رأينا: لا شك عندنا أن جسد الإنسان قد هلك، بأي طريقة تم التخلص منه، سواءً كان ذلك بالدفن أو بالحرق أو في بطن الحوت، ولكن الإنسان نفسه لا زال موجودا في الأرض مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: 143-144]

إن هذا المنطق يدعونا إلى التفريق بين كينونتين اثنتين وهما الإنسان من جهة وجسد الإنسان من جهة أخرى، فالهلاك سيصيب جسد الإنسان ولكن الإنسان نفسه لن يهلك، ولكن كيف؟

لا شك أن الحاجة تتطلب ربط هذا السيناريو بقضية دفن الناس في باطن الأرض في قبورهم، فالأرض هي المكان الذي سيخرج منه الناس إلى ربهم يوم يدعوهم للقائه:

- ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: 24-25]
- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم: 25]

إن لب القول هو الاعتقاد الجازم بأن الناس - كما تبين السياقات القرآنية العديدة (حسب فهمنا بالطبع)- سينبتون من الأرض كما ينبت الزرع، قال تعالى:

- ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الروم: 19]
- ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ [الزخرف: 11]

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾ [الأعراف: 57]

وصورة الحركة في الخروج من الأرض تشبه صورة خروج الجراد على كثرته وسرعته:

- ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر: 7]
- ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾ [المعارج: 43]

نتيجة مهمة: إنّ آلية البعث من القبور كما يصورها النص القرآني هي عملية خروج من الأرض تشبه عملية خروج النبات من الأرض، والحالة كذلك فإننا مدعوون لفهم آلية البعث من خلال آلية خروج الزرع. وهذا يعني بكلمات بسيطة أن الإنسان (كبذرة) لن يهلك وإن هلك جسده كله، فهو كالبذرة التي تزرع في الأرض لتنبت من جديد، فعندما يهلك جسد الإنسان وتأكله ديدان الأرض في باطنها أو أسود البرية على ظهرها، يبقى منه شيء يشبه بذرة الزرع التي لا تفنى مهما اختلفت آلية التخلص من الجثة بعد الموت (وذاك الجزء هو ما نقصد به كينونة الإنسان الذي يختلف عن كينونة جسده الذي لا محالة هالك)، فمن أكله الحوت في قاع البحر سيلبث في بطنه إلى يوم يبعثون حتى بعد هلاك جسده وهلاك جسد الحوت الذي أكله، فيبقى ذاك الجزء الذي سيخرج منه الإنسان كما يخرج الزرع من باطن الأرض.

إن هذا الظن يدعونا إلى تدبر معنى الخروج في النص القرآني، فعند مقارنة خروج الناس من الأرض بخروج الزرع نجد أن العملية لا يمكن أن تتم دون وجود البذرة التي منها سينبت (سيخرج) جسم الإنسان كما ينبت (يخرج) النبات من باطن الأرض. فعملية الخروج تتم بالحركة من باطن الأرض إلى الأعلى في حركة دائمة حتى يتخلص الإنسان بكليته من التراب، ولا شك أن التصوير القرآني يثبت في أكثر من سياق أن عملية الخروج هذه تشبه عملية خروج النباتات من باطن الأرض إلى الأعلى في حركة مستمرة.

فالحركة من وإلى الأرض تصورها الآيات الكريمة التالية:

- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ: 2]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد: 4]

فالدخول في باطن الأرض هو ولوج، والتخلص من باطنها إلى ظاهرها هو خروج. لقد تعرضنا إلى هذه الآيات الكريمة عندما تحدثنا عن جنة آدم وزعمنا أنها تثبت أن جنة آدم لم تكن في السماء وإنما على الأرض، وذلك لسبب بسيط وهو: لو كانت جنة آدم في السماء لجاء الأمر الإلهي لهم بالنزول وليس بالهبوط، فالحركة من وإلى السماء هي حركة عروج ونزول " وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا". انظر مقالتنا أين كانت جنة آدم للتفصيل في هذا الموضوع.

ولو حاولنا تصور المشهد لخروج الناس من باطن الأرض إلى ظاهرها في يوم البعث المعلوم لوجدنا أن الإنسان في ذلك الموقف الرهيب سيحاول التخلص من باطن الأرض بأقصى سرعة ممكنة، فالأرض تتشقق عنهم وهم يحاولون النفاذ إلى الأعلى:

- ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤﴾ [ق: 42-44]

فذاك المشهد على كليته وجزئياته يشبه عملية خروج النباتات، وعند مقارنة هذا المشهد بمشهد خروج الزرع من الأرض، فإننا نخرج باستنتاجات عديدة، نسطّر منها:

1. لزوم سقوط الماء من السماء على الأرض لخروج النبات، وهذا ما يحدث بالضبط في يوم البعث:

- ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾ [الزخرف: 11]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾ [الأعراف: 57]

2. ضرورة تشقق الأرض حتى تتيح للنبات الخروج من باطنها إلى الأعلى، وهذا بالضبط ما يحصل في عملية خروج الناس من قبورهم:

- ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤﴾ [ق: 44]

3. حركة النبات الدائمة في الخروج دون توقف حتى النهاية.

4. ضرورة الحركة السريعة للخروج بأقصى سرعة ممكنة، وهذا ما يحدث في يوم البعث:

- ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾ [المعارج: 43]

الحكمة من الدفن في باطن الأرض

والآن لنحاول أن نربط عملية خروج الناس من الأجداث يوم البعث مع الاعتقاد بضرورة لزوم الدفن في باطن الأرض يوم أن يموت الإنسان ويتحول جسمه إلى جسد يجب التخلص منه.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الحاجة إلى ذلك تتولد بطرح السؤال المعاكس وهو: ما الذي سيحصل للإنسان الذي لم يدفن في باطن الأرض؟ تخيل الإنسان الذي تم حرقه أو الذي تم تحنيطه أو الذي أُلقي في قاع البحر فالتهمته حيتان البحر وأسماكه، أو الذي تم تبريده في ثلاجات أو الذي حفظ بفعل المواد الكيميائية الحافظة، كيف ستتم عملية خروجه تلك (وهو لا محالة محشور، فالله لن يغادر أحدا)؟

جواب: إن المنطق يدعونا إلى مشابهة ذلك فيما لو كانت تلك العملية هي بالفعل عملية خروج الزرع من الأرض مادام أن الله قد عقد المشابه بين خروج الناس من قبورهم بعملية خروج الزرع من باطن الأرض، لذا لا نجد بداً من فهم ذلك الخروج ويكأنه فعلاً عملية خروج النبات بكل حيثياته وتفاصيله ومقوماته ومعوقاته. فالذي يساعد في خروج الزرع يساعد في خروج الأجساد من الأرض، والذي يعيق عملية خروج الزرع يعيق عملية خروج الأجساد من الأرض، وهكذا.

إن أبسط ما يمكن أن نخلص إليه هو أن عملية الخروج ستتم على النحو التالي: سيسقط المطر الذي سيؤدي بتلك البذور للخروج، فستعود الأرواح (الأنفس) إلى تلك البذور بسبب ذلك المطر، لتنمو أجسامهم من جديد من تلك البذور التي لم تهلك (وإن كانت الأجساد قد هلكت)، ولكن يجب التنبيه إلى أنه مادامت تلك العملية تشبه عملية خروج النباتات من الأرض فإن من أبسط المشاهدات التي يمكن الوثوق بها هي أن الزرع لا يخرج كله بنفس اليسر والسهولة. وبالمنطق نفسه فإن خروج الأجسام بعد أن تتم عودة الحياة إليها بعد ذاك المطر لن تكون سهلة ميسرة بنفس الشكل للجميع. والآن لنتخيل ما يحصل في كل حالة

الأجسام التي دفنت في باطن الأرض

لا شك أن عملية خروج تلك الأجسام ستكون هي الأسهل، فنحن نعلم أن البذرة السليمة المزروعة في التربة السليمة تنمو بطريقة سلسة ميسرة يوم أن ينزل عليها الماء من السماء. وبالمنطق نفسه مادام أن المقارنة معقودة كما يصورها النص القرآني فإن الأجساد عندما تدفن في باطن الأرض فإنها تهلك بفعل ديدان الأرض ولكن ذلك لن يؤدي إلى تلف البذرة التي ستبقى متواجدة في باطن الأرض إلى أن ينزل الله عليها ذاك المطر الذي يعيد إليها الحياة لتنبت أجساماً قوية نظرة كما كانت يوم الخلق الأول:

- ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: 103-104]
- ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: 79]

والمدقق في هذه الآيات الكريم يجد أنها تشير إلى أن تلك العملية ليست عملية خلق جديد، بل هي إعادة للخلق الأول (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ)، وآليته هي الإنشاء (أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

الأجساد التي لم تدفن

لا شك الأجساد التي تم التخلص منها بطرق أخرى غير الدفن لن تخرج من باطن الأرض بنفس السهولة واليسر الذي تحصّل لتلك التي تم دفنها في باطن الأرض، فتلك الأجسام ستكون منهكة متعبة تعاني من الضيق الذي وقعت فيه بسبب ما أصابها عندما لم تدفن في الأرض، فالجسد الذي أحرق (كما الزرع الذي أحرق) قد هلك بأكمله بسبب فعل الحرق وتحول إلى رماد ولكن مما لا شك فيه أن بذرته حتى

وإن لم تهلك كلياً قد أصابها العطب، فما تبقى من الجسد (كينونة أو بذرة الحياة) ستكون بذرة غير سليمة للخروج كما هو الحال بالنسبة للبذرة السليمة التي لم يصبها العطب بفعل الحرق.

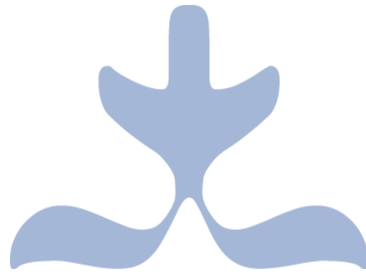
فلنتخيل المشهد الزراعي مرة أخرى: هل تنبت جميع البذور من باطن الأرض بنفس القوة والعافية والنضارة؟ إن مما لا شك فيه أن البذرة السليمة تنبت بشكل أكثر سلاسة ونضارة من البذرة المريضة المعطوبة. قم بنفسك بحرق بعض البذور، ثم قم بنثرها في الأرض وصب عليها ما شئت من ماء، هل ستنبت تلك البذور بشكل سليم؟ كلا، وربما لا ينبت الكثير منها. ولكن لمّا تعهد الله بأن ينبت كل البذور ﴿... وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: 47] كان لزاماً أن تنبت حتى المعطوبة منها ولو كان ذلك يتم بطريقة أصعب وأكثر تعقيداً مما حصل للبذور السليمة، إننا نود القول أن الشعوب التي تقوم بحرق أجساد الناس إنما تقوم بتشويه بذرة الحياة التي ستنبت منها تلك الأجساد يوم القيامة يوم أن يصب الله عليها ماء الحياة لينشئها مرة أخرى، وهذا سيجعل خروج تلك البذور من الأرض خروجاً صعباً، فما يخرج صاحبها إلاّ وقد تعب تعباً شديداً، وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت.

وبالمنطق نفسه فإن الأمة التي تقوم بتحنيط تلك الأجساد إنما تتسبب في المعاناة الشديدة لتلك الأجسام كي تخرج من ذلك القالب الذي وضعت فيه. قم بنفسك بتحنيط البذور (بتغليفها بالمواد الكيماوية التي تحفظ قشرتها) ثم قم بزراعة تلك البذور في التربة، واسكب عليها ما شئت من الماء، فهل ستخرج تلك البذور بسهولة ويسر ونضارة؟ الجواب كلا. وتخيل المشهد نفسه لو تم حفظ الجثث في برادات (ثلاجات خاصة)، أو بمواد كيميائية حافظة: هل يا ترى ستخرج تلك الأجسام بشكل طبيعي كما لو أنها زرعت في باطن الأرض؟ الجواب كلا.

النتيجة: إن الفكر الذي يؤمن بالخروج من الأرض يوم البعث هو نفس الفكر الذي يدعو إلى دفن الأجساد في باطن الأرض يوم أن تتحول من أجسام (تدب فيها الحياة) إلى أجساد (خرجت منها الروح). ولكن حتى تعود تلك الأجساد إلى أجسام مرة أخرى فمن الأفضل أن لا يعمد إلى عطب أو تخريب البذرة التي ستنبت منها تلك الأجسام مرة أخرى، والأفضل أن تودع (تزرع) تلك البذور في بيئة صالحة تسهل عملية خروجها يوم الوقت المعلوم، بالضبط كما البذرة السليمة التي لم يصبها التلف بفعل عوامل خارجية وقد زرعت في التربة الصالحة لنموها.

وللحديث بقية

بقلم د. رشيد الجراح
25 تموز 2011



بداية الخلق

الجزء الخامس



الجزء الخامس: وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا

نتعرض في هذه المقالة للحديث عن الطائر الذي ألزمه الله في عنق كل إنسان منا، لنطرح تساؤلين رئيسين اثنين هما:

1. ما هو ذلك الطائر الذي ألزمه الله في أعناقنا؟ و
2. لماذا ألزمنا الله إياه؟ أو ما هي الوظيفة التي يقوم بها هذا الطائر؟

ولكن قبل الخوض في جزئيات هذا الموضوع نود أن نشير إلى القارئ الكريم أن الضرورة تستدعي أن تُقرأ هذه المقالة في ضوء ما جاء في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان "كيف تم خلق عيسى بن مريم؟" حيث تحدثنا بشكل أكثر تفصيلاً عن معنى مفردة الطائر كما نفهمها من النص القرآني لما كان حديثنا منصباً حينئذ على جزئية في قصة سيدنا إبراهيم عندما طلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٦٠﴾ [البقرة: 260]

كما نظن أنه ربما يكون من المفيد أيضاً أن يعود القارئ الكريم إلى مقالتنا تحت سلسلة "لحم الخنزير"، حيث حاولنا التفريق بين أنواع كثيرة من الكائنات كالأنعام والدواب والناس والطير الذي يطير بجناحية والطير التي لا تطير بجناحيها، خاصة عندما حاولنا التمييز بين الأنعام من جهة والنعم من جهة أخرى.

وسنحاول في عجالة هنا أن نستعرض بعض الافتراءات التي قدّمناها في بعض تلك المقالات والتي نظن أن لها علاقة مباشرة بالآية الكريمة قيد البحث هنا الخاصة بالطائر الذي ألزمنا الله إياه في أعناقنا.

أما بعد،

الافتراءات السابقة

1. الطير مخلوقات على نوعين وهما:

أ. تلك التي تطير بجناحيها وهي أمم أمثالنا:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: 38]

ب. وتلك التي لا تطير بجناحيها وهي ليست أمم أمثالنا، وهذه يمكن أن يمسكها الإنسان، لأنها لا تطير بجناحيها، وهي بالتالي متواجدة على الأرض، لذا فهي تقع – حسب ظننا- في فصيلة "النعم" التي يمكن أن تصطاد اصطياداً:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾ [المائدة: 95]

ونحن إذ نقرأ هذه الآية الكريمة لنستغرب أن تكون فتوى علماء المسلمين لمن قام بفعل الصيد وهو في حالة الإحرام أن يقوم بذبح شيء من الأنعام كالماعز أو الضأن أو البقر أو الإبل ككفارة عن ما فعل، فالآية الكريمة تدل بما لا لبس فيه أن الجزاء هو من مثل ما قتل من "النعم" (فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ) وليس من الأنعام، فمادام أن النعم هي المقتولة التي تم اصطيادها، فكيف تكون الكفارة من الأنعام التي تكون مملوكة؟ أليست الكفارة من مثل ما قتل من النعم؟ فهل يمكن أن يعود الحاج المعتمر ببقرة أو ماعز أو شيء من الضأن أو الإبل ليدعي أنه قام باصطياده؟ فهل تصطاد تلك الكائنات اصطياداً؟ انظر مقالة "كيف تم خلق عيسى 3؟"

جواب: كلا وألف كلا، إننا نعتقد أن الإنعام هي كائنات مملوكة لا يمكن أن يتم اصطيادها، أما النعم فهي كائنات برية يمكن أن يتم اصطيادها، لذا فالكفارة تكون بمثل ما قتل من النعم، فأنت إن اصطدت أرنباً فكفارته بـ "مثل الأرنب"، وإن أنت اصطدت غزالاً فكفارته بـ "مثل الغزال"، وإن أنت اصطدت حماراً وحشياً، فكفارته بـ "مثل الحمار الوحشي، وهكذا، فكيف يتم ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الكفارة تكون على نحول "مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ"، وهذا – بكل تأكيد- لا يكون باصطياد نعم أخرى مثل التي قتلها المحرم لأن الحاج لا زال في مرحلة الإحرام، فكيف به أن يقوم بفعل القتل مرة أخرى، فإن هو فعل، فهذا يعني أنه يقوم بالاصطياد مرة أخرى وبالتالي الوقوع في المحظور من جديد، وهكذا. لذا نحن نفتري الظن أن الكفارة تكون بدفع قيمة المثل كما يحكم به ذوا عدل " فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ "، أي إن قام الحاج المحرم باصطياد أرنب بري مثلاً، فإن كفارة ذلك – في رأينا- لا تكون بأن يقوم باصطياد أرنب مثله، ولكن تكون بأن يقدر ذوا العدل قيمة ذلك الأرنب تقديرا (ويكون ذلك بالنقد أو بالطعام) يتم دفعه هدياً بالغ الكعبة أو لإطعام المساكين (أو الصيام إن تعذر دفع المثل).

والحكمة من ذلك - كما نظنها- تتمثل في أن تلك الثروة البرية (النعم) وإن لم تكن ملكية فردية لشخص بعينه إلا أنها ملكية خاصة لأهل تلك الديار التي يمر بها الحاج المحرم، ومادام أن الحجاج يأتون من كل فج عميق، فليس لهم الحق في التعدي على ممتلكات الآخرين، لذا إن قام الحاج المحرم بقتل شيء من تلك النعم، فعليه أن يدفع تعويضاً لأهل تلك المنطقة لأنه تعدّى على ممتلكاتهم، وخاصة لفقرائهم الذين غالباً ما يعتاشون على ما تجني أيديهم ورماحهم لتوفير قوتهم وقوت عيالهم.

ولكن - بالمقابل- نجد الرخصة بالنسبة لصيد البحر مفتوحة (حتى وقت الإحرام) وذلك لأن البحر في رأينا- ليس ملكية فردية لأحد وهو ليس ملكية خاصة لأهل منطقة معينة وإنما هو ملكية عامة للجميع، لذا عندما تقوم أنت باصطياد شيء من البحر، فأنت لا تعتدي على ملكية الآخرين، والله أعلم.

2. الطير التي تطير بجناحيها هي مخلوقات ليست موجودة في السماء وهي ليست موجودة في الأرض وإنما في جو السماء، ما يمسكهن إلا الرحمن، وبالتالي فهي من الكائنات المسخرة وليست من الكائنات المذللة.

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: 41]
- ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: 79]

فالمسبحون لـ الله هم (1) من في السموات و (2) من في الأرض و(3) الطير

حاولنا الافتراء سابقاً أن هذه الكائنات ليست من النعم، وبالتالي لا يجوز صيدها لأن الصيد مقتصر على ما تناله أيدنا ورماحنا:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [المائدة: 94]

فلا يجوز استخدام السهام في الصيد.

3. مادام أن الطير التي تطير بجناحيها (كما الدواب) أمم أمثالنا:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: 38]

لذا نحن نفتري الظن بأنه لا يجوز اصطيادها وأكلها.

(للتفصيل انظر كيف تم خلق عيسى بن مريم 3)

4. لهذه الطيور صفات خاصة كما يميّزها القرآن الكريم: هي متواجدة فوقنا، وهي من الصافات، وهي ممن يقبضن، وهي ممن ما يمسكهن إلا الله (الرحمن). وهي بلا شك ممن قد علم صلاته وتسبيحه، وهي من الكائنات المسخرة:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: 19]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: 41]
- ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: 79]

5. لا شك عندنا أن عيسى بن مريم لم يكن يخلق من الطير المكلّفة المسخرة التي تطير في جو السماء والتي هي أمم أمثالنا، ولكنه كان – نحن نظن- يخلق من الطير المذلّلة غير المكلّفة التي لا تطير في جو السماء:

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: 49]
- ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: 110]

وذلك لأن من خلق هو من يهدي:

- ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء: 78-81]

فلقد افترينا الظن سابقاً أن ما كان يقوم عيسى بخلقه من الطير كان يمكث مع القوم وليس فوقهم، فهي من الطيور التي يمكن أن تتعايش مع الناس، وهي كائنات مذلّلة للأكل وغير مكلفة بالعبادة، وهي ليست أمم أمثالنا، لذا لم تكن تدين لعيسى بن مريم بالربوبية.

6. لا شك عندنا أيضاً أن إبراهيم قد صرّ إليه أربعة من الطير المذلّلة التي لا تطير بجناحيها، والدليل عندنا يأتي من الحقيقة القرآنية التي مفادها أنه ما أن قام إبراهيم بدعوة تلك الطيور إليه حتى أتته ساعية ولم تأتي إليه طائرة:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: 260]

هذه في عجالة أهم الافتراءات التي قدّمناها فيما يخص تلك الكائنات التي نظن أنها وردت في كتاب الله بلفظ "الطير"، ولكن السؤال الذي نود أن نتابعه هنا يتعلق بالآية الكريمة التي تصرح بأن الله قد ألزم كل إنسان طائره في عنقه، في قوله تعالى:

- ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: 13]

فما هو ذلك الطائر يا ترى؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا الطائر هو من النوع الذي يطير بجناحيه

الدليل

نحن نفتري الظن بأن عملية الطيران لا يمكن أن تتم دون الأجنحة، فالذي يملك جناحين يستطيع أن يقوم بفعل الطيران، ونحن نفتري الظن بأن الكائنات تنقسم من حيث الأجنحة إلى ما يلي:

1. كائنات تملك جناحين وتستطيع الطيران وهي المسخرة في جو السماء وهي أمم أمثالنا
2. كائنات تملك جناحين ولكنها لا تستطيع الطيران كالطير المذلّلة والتي يمكن أن تمسك في البيوت
3. كائنات تملك جناح واحد كالإنسان، لذا لا تستطيع الطيران

الدليل

لو استعرضنا ما جاء في كتاب الله عن قصة موسى لوجدنا أن الله يطلب من موسى أن يضمم يده إلى جناحه:

- ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [طه: 22]
- ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: 32]

وكذلك طلب الله من نبيه الكريم أن يخفض جناحه للمؤمنين:

- ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: 88]
- ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: 215]

وطلب الله منا جميعاً أن نخفض لوالدينا جناح الذل من الرحمة:

- ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: 24]

افتراء من عند أنفسنا 1: نحن نزعم القول أن الإنسان ليس له إلا جناح واحد يستطيع أن يضمم يده إليه، وليس له إلا جناح واحد حتى يخفضه فلا يرتفع فوق الآخرين.

افتراء من عند أنفسنا 2: نحن نفتري الظن بأن الإنسان لا يستطيع الطيران لأنه لا يملك سوى جناحا واحدا، لذا فهو يستطيع أن يرتفع جزئياً عن سطح الأرض، فيرفع رجله عن الأرض وما أن يحاول أن يرفع رجله الأخرى حتى تنزل الأولى إلى الأرض، وهكذا. أما الطير فيستطيع أن يرفع كلتا رجليه عن الأرض في آن واحد لأنه يملك جناحين اثنين.

فما هو الجناح إذن؟

جواب: نحن نظن أن من الخطأ أن يظن الإنسان بأن الجناح هو كل ذلك الجزء من الجسم الذي يشبه ما يعرفه الناس بجناح الطير، كما تظهر في الأشكال التالية:



Source: http://newspaper.li/wings/

وإلا كيف سيستطيع أن يضمم موسى يده إلى جناحه؟ وكيف سيستطيع محمد أن يخفض جناحه للمؤمنين؟ وكيف سيستطيع كل إنسان أن يخفض لوالديه جناح الذل من الرحمة؟

رأينا: نحن نظن أن ذلك الجزء الذي يظهر في الصور ليس كله بالجناح، فالطائر لا يطيّره ذلك الجزء من جسمه، ولا تتعدى مهمة معظم ذلك الجزء الذي يظهر في الصورة أكثر من المحافظة على توازن الطير

في جو السماء وتوجيهه بعد عملية الإقلاع (أي الطيران)، فالطائرة مثلاً لا تطيّرها الأجزاء التي يعرفها الناس بالأجنحة، فهناك أنواع من الطائرات لا تركّب عليها تلك الأجزاء ومع ذلك فهي تطير في جو السماء كما يفعل الطائر. فما هو الجناح إذن؟

رأينا: الجناح هو ذلك الجزء من الجسم الذي يقوم بفعل رفع الجسم عن الأرض ليحلق به في جو السماء مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: 38]

ولو راقبنا حركة إقلاع الطير، لربما وجدنا أن الطير لا ترتفع إلى الأعلى بفعل ما يسميه الناس أجنحة، بل هي ترتفع إلى الأعلى بفعل أجنحتها الحقيقية التي ترفعها إلى الأعلى، ثم تقوم تلك الأجزاء التي تظهر في الصورة في الأعلى (ويعرفها الناس بالأجنحة) بالمحافظة على توازن الطائر في السماء وتوجيه حركته بالاتجاه المطلوب. فالأجنحة التي يعرفها الناس هي التي توجه الحركة، ولكن الأجنحة التي ترد في السياق القرآني هي التي تعمل على رفع الجسم عن الأرض لتحلق به في جو السماء. فأين يا ترى توجد تلك الأجنحة الحقيقية؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الجناح موجود في المنطقة التي يلتقي بها ما يعرفه الناس باسم الكتف مع العنق كما يظهر في الشكل التالي:



Source

وهناك – برأينا- يقع الجناح الذي تكمن مهمته في رفع الجسم عن الأرض، فمن كان له جناح واحد (كالإنسان) فهو يستطيع أن يرتفع بشكل جزئي، ولكن من كان له جناحان (كالطير) فيستطيع أن يرتفع عن الأرض بشكل كلي.

ولو راقبت حركة إقلاع الطير عن الأرض بدقة لوجدت أن أول ما يقوم به الطائر عند إقلاعه هو تحريك ذلك الجزء من جسمه، وهو –برأينا- ما يمكّنه من الارتفاع عن الأرض ليحلق في جو السماء، وما أن يرتفع الطائر عن الأرض حتى تبدأ مهمة ما يعرفه الناس بالأجنحة بالعمل على تثبيت الطائر بالارتفاع المطلوب وتحريكه باتجاه حركته.

الجناح

لو راقبنا السياقات القرآنية التي طلب الله من موسى فيها أن يفعل فعلاً خاصاً يتعلق بالجناح لوجدنا السياقيين القرآنيين التاليين:

- ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢﴾ [طه: 22]
- ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٣٢﴾ [القصص: 32]

أولاً، إن المدقق في اللفظ القرآني يجد أن الفعل المطلوب من موسى أن يقوم به هو أن يضمم يده إلى جناحه، فكيف سيقوم موسى بفعل ضم اليد إلى الجناح؟

ثانياً، والمدقق باللفظ يجد أيضاً أن المطلوب من موسى أن يضمم إليه جناحه من الرهب، فكيف يستطيع موسى أن يقوم بفعل ضم جناحه إليه؟

افتراء من عند أنفسنا: إن أبسط ما يمكن أن نستنبطه من هذا السياق القرآني هو أن الجناح جزء مرن الحركة يمكن أن يبتعد وأن يقترب من الإنسان صاحب الجناح نفسه، وذلك لأن صاحب الجناح يمكن أن يضممه إليه (وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ)، فما معنى مفردة "اضمم" في النص القرآني؟

ثالثاً، لو راقبنا النص القرآني جيداً لوجدنا أن اليد يمكن أن تضم إلى الجناح، أليس كذلك؟ فالله يطلب من موسى أن يضمم يده إلى جناحه (وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ).

رابعاً، ولو راقبنا سياقات قرآنية أخرى ورد فيها الجناح، لوجدنا أن الجناح يمكن أن يتحرك باتجاه الأسفل:

- ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الحجر: 88]
- ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥﴾ [الشعراء: 215]
- ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝٢٤﴾ [الإسراء: 24]

وهذا يدعونا إلى تقديم الافتراءات التالية التي هي بلا شك من عند أنفسنا:

1. اليد يمكن أن تذهب باتجاه الجناح فتضم إليه (وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ)
2. والجناح يمكن أن يأتي باتجاه صاحبه فيضم إليه (وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ)
3. الجناح يمكن أن ينزل في حركة إلى الأسفل، فينخفض (وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

السؤال : ما هو الجزء من الجسم الذي يمكن أن يقوم بذلك كله؟

رأينا: إنه الجزء المتحرك في الصورة السابقة نفسها، فلننظر إلى ذلك الجزء من الجسم الذي يمكن أن يضمم إلى الجسم، ويمكن أن تضمم اليد إليه ويمكن أن يخفض إلى الأسفل، وهو بلا شك الجزء الذي إذا ما رفعه صاحبه بان وكأنه يتكبر على الآخرين:



ولو دققنا أكثر في النص القرآني لوجدنا أن الله يطلب من موسى أن يضمم جناحه إليه من الرهب:

- ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: 32]

ولو افترضنا أن الرهب (مأخوذ من الرهبة والرهبانية والرهبان ومشتقات يرهب ويرهبون) المتعلقة بحالة من حالات الخوف، لربما وجدنا أن الإنسان إذا ما تعرض جسمه لخطر خارجي، فإن ردة فعله الأولى تكون بضم جناحه إليه.

الدليل: تناقض ظاهري

لقد طلب الله من موسى أن يضمم يده إلى جناحه لتخرج بيضاء من غير سوء كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [طه: 22]

ولكن المتدبر أكثر للنص القرآني يجد أن الله قد طلب من موسى أن يسلك يده في جيبه لكي تخرج بيضاء من غير سوء كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: 32]

وهنا يثار التساؤل الخطير التالي: ألا ترى عزيزي القارئ أن في هذا شيء من التضارب؟ فما المطلوب من موسى أن يفعله لكي تخرج يده بيضاء من غير سوء: أن يضمم يده إلى جناحه كما في سورة طه أم أن يسلك يده في جيبه كما في سورة القصص؟ فما الذي كان يخرج يد موسى بيضاء من غير سوء: أن يضممها إلى جناحه أم أن يسلكها في جيبه؟

- وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ
- ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ

رأينا: كلا وألف كلا، لا يوجد تضارب على الإطلاق، بل هل الدقة المتناهية التي لا يستطيعها إلا عليم خبير شريطة أن نقرأ الآيات كما هي في النص وليس من رؤوسنا كما نحب أن نتخيلها، ولكن كيف؟

جواب: عندما طلب الله من موسى أن يضمم يده إلى جناحه لكي تخرج بيضاء من غير سوء جاء ذلك بلفظ " وَٱضۡمُمۡ "، ولكن عندما طلب الله أن يسلك يده في جيبه جاء ذلك بلفظ " ٱسۡلُكۡ "، لذا لابد من التنبيه أن موسى كان يضمم يده إلى جناحه ولكنه كان يسلك يده في جيبه، فما الفرق؟

رأينا: في الحين أن "الضم" (إن صح القول) يتطلب من أحد الأطرف أن يذهب إلى طرف آخر، فإن السلوك يتطلب فقط المرور في الطريق. ولكن ما فائدة هذا الكلام غير المفهوم؟

جواب: عندما تقوم بفعل ضم اليد إلى الجناح فإن اليد هي التي ستذهب إلى الجناح، وعندما تضمم جناحك إليك فإن الجناح هو الذي يتحرك باتجاه جسمك، وللتوضيح فقط، دعنا نتصور ما يحدث عندما تقوم الأم بضم طفلها إليها، فالأم التي تضم طفلها إليها تقوم بتحريك الطفل باتجاه جسمها، وهكذا.

أما السلوك فإنه يتطلب حركة مرور باتجاه محدد، فها هي النحل مأمورة بأن تسلك السبل:

- ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾ [النحل: 69]
- ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣﴾ [طه: 53]

والله سلك الماء الذي أنزله من السماء ينابيع:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١﴾ [الزمر: 21]

وهذا نوح يؤمر أن يسلك في السفينة من كل زوجين اثنين:

- ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧﴾ [المؤمنون: 27]

إن ما نود إثارته هنا هو أن سلك الشيء يتطلب من ذلك الشيء أن يتخذ طريقاً له ليصل إلى منتهاه، لذا نحن نتصور أنه عندما كان موسى يسلك يده في جيبه، ما كانت جيب موسى أكثر من طريق تسلكه يده لتصل إلى جناحه فتضم هناك وتخرج من هناك بيضاء من غير سوء، لذا نحن نفتري أن يد موسى لم تكن تستقر في جيبه ولكنها تدخل فقط في جيبه، فتسلك طريقا لها من هناك لكي تصل إلى الجناح حيث تخرج من هناك بيضاء من غير سوء.

فما هو الجيب؟

افتراء من عند أنفسنا: الجيب هي الطريق التي تسلكها اليد لتصل إلى الجناح، ولكن كيف؟

لو تدبرنا السياق القرآني التالي لوجدنا أن الله يأمر موسى أن يدخل يده في جيبه:

- ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ١٢﴾ [النمل: 12]

ولا شك عندنا أن الدخول في الشيء يقتضي وجود مساحة يمكن الداخل من التجوال في المدخول به، فالله قد أمر بني إسرائيل أن يدخلوا القرية ليتمتعوا بما فيها من الخيرات، وكذلك هي حالة دخول الجنة، وهكذا:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾ [البقرة: 58]
- ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾ [الأعراف: 49]

ولا شك أن في الدخول متسع للآخرين:

- ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠﴾ [الزخرف: 70]

والدخول يقتضي وجود الأبواب التي يتم الدخول من خلالها للوصول إلى المساحة الأكثر اتساعاً:

- ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٦﴾ [غافر: 76]
- ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ [يوسف: 67]

- ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾ [النساء: 154]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن يد موسى كانت تدخل في جيبه فتسلك طريقاً لها حتى تصل إلى جناحه لكي تخرج من هناك بيضاء من غير سوء

فما هي اليد

لقد تحدثنا في مقالة سابقة لنا عن اليد وزعمنا الظن أن القرآن الكريم يتحدث عن

1. اليد التي تقطع في حد السرقة

- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة: 38]

وسنتحدث لاحقاً بحول الله عن كيفية قطع يد السارق في ضوء ما يمكن أن نفهمه من قصة نسوة المدينة اللواتي قطعن أيديهن عندما رأين يوسف وأكبرنه، لذا فالله أسأل أن يأذن لنا بمعلم لا ينبغي لأحد غيرنا إنه هو السميع العليم

2. اليد إلى المرفق (التي تغسل في الوضوء):

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: 6]

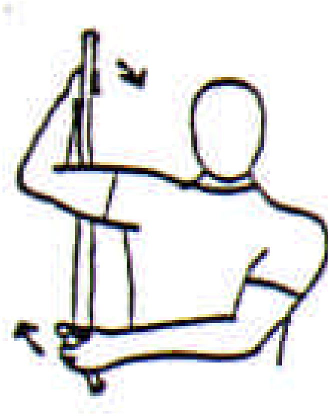
3. الجناح (الجزء المتبقي من المرفق وحتى الكتف)

- ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢﴾ [طه: 22]
- ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٣٢﴾ [القصص: 32]

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت سلسلة لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه؟)

السؤال: كيف كان يضمم موسى يده إلى جناحه؟

جواب: نحن نظن أن موسى كان يحرك يده فيدخلها في جيبه (منطقة الصدر) ليسلك بها طريقاً من هناك لتصل إلى جناحه (الجزء الأعلى من يده الأخرى) ليضمم هناك يده إلى جناحه فتخرج من هناك بيضاء من غير سوء كما يمكن أن نتصورها بالشكل التوضيحي التالي:



Source: http://www.athleticadvisor.com/images/Acrobat/Impingement.pdf

استراحة قصيرة: الجيب

ما هو الجيب؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الجيب هي المنطقة التي يمكن أن تغطيها اليد في طريقها إلى الجناح

الدليل

لقد قرأنا الآية القرآنية التي تتحدث عن جيب موسى على أنها طريقاً تصل من خلالها يد موسى إلى جيبه، فلو حاول كل إنسان أن يمد يده لتصل إلى جناحه لوجد لزوماً عليه أن يمر بمنطقة الصدر وهي ما نظن أنها الجيب كما في الأشكال التوضيحية التالية:





Source

وهذا يعيدنا على الفور إلى الطلب الإلهي من النبي أن يوصل قول الحق إلى المؤمنات بأن يضربن بخمورهن على جيوبهن:

- ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: 31]

السؤال: كيف يمكن أن تضرب المرأة بخمارها على جيبها؟

رأينا: لابد من فهم هذا السؤال في ضوء آية كريمة أخرى تتحدث عن لباس المرأة الشرعي، حيث نجد أن النساء مأمورات أيضاً بأن يدنين عليهن من جلابيبهن:

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب: 59]

الأمر الذي دعانا سابقاً إلى تقدي الافتراء التالي: لباس المرأة يجب أن يكون قطعتين اثنتين وهما:

1. الخمار وهو الذي يضرب ضرباً على منطقة الجيب وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ
2. الجلباب وهو الذي يدنى على المرأة يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ

ولو راقبنا الآيات الكريمة جيداً لوجدنا أيضاً – كما زعمنا سابقاً- أن المرأة لم يطلب منها أن تغطي كامل وجهها، ولا بد أن تترك مجالاً لكي تعرف، فالله لم يطلب منا أن نلبس المرأة بطريقة تمنع معرفتها كلياً ولكنه طلب منا أن نلبسها بطريقة تقلل من فرصة معرفتها:

- ﴿... ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب: 59]

فالنص القرآني لم يأت على نحو "فلا يعرفن" أو "حتى لا يعرفن" أو "لكي لا يعرفن"، ونحوها. وإنما جاء على النحو التالي " أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ "، أليس كذلك؟

وإذا أردنا أن نتحدث عن مقاصد الشريعة في الخمار، لوجدنا أن علماءنا الأجلاء قد ظنوا أن في تغطية كامل الوجه درء للفتن، ولكننا نقول لهم لو نظرتم حولكم الآن لوجدتم أن عشرات الفتن تقع بسبب الخمار، فالمتسولات (الممتهنات للتسول) يلبسن الخمار فلا يعرفن، وبعض بائعات المجون والهوى أصبحن يلبسن الخمار الذي شرّعه علماؤنا للتستر على هويتهن فلا يعرفن، والغش في جامعاتنا العتيدة

أصبح رائجاً باستخدام الخمار وانتحال الشخصية، ووصل الأمر بأن يلبس بعض الرجال الخمار ليندس في جموع من النساء!!!

وما الذي سيدريني ما يمكن أن تفعله أمي أو زوجتي أو ابنتي إن أرادت أن تخفي شيئاً عني، فهل أستطيع أن أراقب تحركاتها وهي تغطي وجهها كاملاً؟ هل أستطيع أن أعرف أن الخارجة من بيت الهوى هي قريبة لي مثلاً؟ أليس في كشف بعض من وجه المرأة حماية للمجتمع من التستر تحت غطاء ينكر الشخصية تماماً؟

ثم، ألا تجدوا يا سادة أن من تلبس الخمار تأخذ راحتها في التفرج على الآخرين؟ هل تستطيع من تكشف جزء من وجهها أن تتبع حركات الناس من حولها كما تفعل كثير من المتخمرات والمخمرات (حسب شريعة علمائنا الأجلاء)؟ من يدري!!!

إن من أراد أن يتحدث عن مقاصد الشريعة – يا سادة- فعليه أن يضع على الطاولة كل الظروف والأحوال، ولا يجب أن يفتح عينه على شيء منها ويغلق عينه الأخرى عن أشياء كثيرة، إن هذا يصبح أقرب إلى أهواء النفس ورغباتها أكثر منه عقيدة ملزمة للجميع بأمر رباني أحاط بكل شيء علما.

وقد يرد البعض بأنهم يريدون الدليل العقائدي أكثر من التنظير وإلقاء الخطب كما أفعل أنا الآن، فأقول لهؤلاء دعنا نراجع قصة مريم بنت عمران مثال الطهر والعفاف.

ألم يكن زكريا يدخل عليها المحراب؟ هل كانت تلبس الخمار عندما كان يدخل زكريا عليها المحراب؟ وما الذي كان سيدري زكريا أن هذه هي مريم بنت عمران؟

وقد يرد البعض ولكن هذه خصوصية لزكريا، فنقول ربما يكون هذا صحيحاً، إذن دعنا نراجع قصتها مع قومها، لنطرح السؤال التالي: كيف رجعت مريم إلى قومها بعد أن وضعت المسيح عيسى بن مريم؟ ألم تكن تحمله؟ كيف عرف قومها جميعاً أن القادمة إليهم من بعيد هي مريم بنت عمران؟

- ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: 27-28]

فهل لو كانت مريم – يا سادة- تلبس الخمار الذي يغطي وجهها كاملاً، فهل كان القوم سيتعرفون القوم على شخصيتها وأنها حقاً هي مريم بنت عمران التي يعرفون؟ وماذا لو كانت تلبس الخمار وظهرت شائعات من بعض المغرضين (من أمثالي مثلاً) بأن التي كانت تختمر بغطاء والوجه وتحمل الصبي ليست مريم بنت عمران التي نعرف؟ ألم يكن ذلك سيؤدي إلى جدال كبير واختلاف عريض بين القوم؟ فهل - يا ترى- تجادل القوم في شخصية من تحمل عيسى بين يديها؟ من يدري!!!

أما أنا فلا أظن أن تغطية الخمار للوجه كاملاً هو شريعة إلا من ظن أن أمه وزوجته وابنته وأخته يمكن أن يطلب لها عفة أكثر من عفة مريم بنت عمران، وهي التي شهد لها رب السموات والأرض بالطهر والعفاف وإحصان الفرج:

- ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ [الأنبياء: 91]
- ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ [التحريم: 12]

على أي حال، ما دخلي أنا بمثل هذه القضايا!!! فلتغلق فاك يا رجل وعد إلى حديث الجناح

عودة على بدء

نخلص من النقاش السابق إلى الافتراء بأن الجيب هو المنطقة التي تبدأ من عند السرة وتنتهي إلى الجناح حيث يمكن أن تضم اليد إليه ضماً، وهذا ما كان يفعل موسى بأمر من ربه لكي تخرج يده من هناك بيضاء من غير سوء، وهذا يعيدنا إلى نقاشنا عن الطير الذي يحلق في جو السماء بجناحين لكي يرفعانه معاً إلى الأعلى:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام: 38]

وهذا النوع من الطير هو ما نظن أن الله قد ألزم كل إنسان منا في عنقه:

- ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾ [الإسراء: 13]

نعم، هناك في عنق كل إنسان طائر يطير بجناحيه، ولكن لماذا؟

مهمة ذلك الطائر

افتراء خطير جداً من عند أنفسنا: نحن نعتقد أن ذلك الطائر هو الموكل بحمل نفس الإنسان من عنقه ليذهب بها عند الله والعودة بالنفس من هناك إلى الإنسان مرة أخرى.

الدليل

نحن نجد الدليل على هذا الزعم جلياً في قوله تعالى:

- ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزمر: 42]

فلو راقبت عزيزي القارئ هذا النص القرآني جيداً لوجدت أن الوفاة تحصل للإنسان على الأقل مرة واحدة في اليوم والليلة، فصريح اللفظ القرآني يشير أن الله هو من يتوفى الأنفس في منامها كما أنه هو نفسه من يتوفى الأنفس حين موتها، فما يحصل للإنسان من الوفاة في الموت يحصل له في الوفاة بالنوم، ولكن الفرق يكمن في أن الله يمسك التي قضى عليها الموت فلا يرسلها مرة أخرى إلى صاحبها (فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ)، ولكنه يرسل الأخرى إلى أجل مسمى (وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ). لذا علينا أن نؤمن إيماناً يقينياً أن نفس الإنسان تخرج منه لتذهب عند ربها كلما خلد الإنسان إلى النوم وتعود إليه كلما استيقظ من نومه، وهذا يدعونا إلى طرح الافتراء التالي:

إن الذي يخرج من الإنسان ويعود إليه في حالة الموت وفي حالة النوم هي النفس (وليس الروح كما هو شائع عند العامة)، وسنحاول التعرض لهذه الجزئية بالتفصيل في مقالات قادمة بحول الله وتوفيقه.

لذا فالله أسأل أن يختصني بعلم من لدنه لا ينبغي لأحد غيري إنه هو السميع المجيب.

ولكن طرحنا هذا يدعونا إلى طرح التساؤل التالي على الفور: من الذي يقوم بحمل نفس الإنسان كلما خلد إلى النوم ليذهب بها إلى ربها، ومن الذي يعود به إلى الإنسان متى استيقظ من نومه؟

افتراء خطير من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأنه ذلك الطائر الذي ألزمه الله في أعناقنا

- ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣﴾ [الإسراء: 13]

ولو حاولنا أن نربط ذلك بقوله تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: 16]
- ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ٨٥﴾ [الواقعة: 85]

لربما لاحظنا تأكيد القرب الإلهي للإنسان في السياقين القرآنيين بضمير الجمع " وَنَحْنُ "، فلماذا يتحدث الله عن قربه للإنسان بضمير الجمع؟

رأينا: نحن نتقد أن الله موجود بعلمه ولكن هناك من وكله الله من خلقه ليتواجد على الدوام في عنق الإنسان وليتكفل بنقل نفسه من وإلى جسد الإنسان في كل يوم وليلة، بالضبط كما ينقلها في حالة الوفاة بالموت: إنه ذلك الطائر؟

افتراء من عند أنفسنا: يقوم ذلك الطير بالتواجد الدائم مع نفس الإنسان لأنه هو الموكل بحملها من عنق الإنسان ليذهب بها عند ربها ويعود بها من هناك إلى عنق الإنسان مادام أن الموت لم يقضي بعد على الإنسان.

ولو حاولنا التفريق بين الوفاة بالموت والوفاة بالنوم لربما تجرأنا أن نفتري القول بأن نفس الإنسان تخرج مباشرة من عنقه في حالة النوم، فيطير بها الطائر من هناك، ولكن في حالة الموت فإنها تخرج من الحلقوم:

- ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧﴾ [الواقعة: 83-87]

نتيجة مفتراة: نفس الإنسان موكل بها طائر يروح بها ويرجع مادام أن الموت لم يقضي على الإنسان بعد.

تبعات هذا الافتراء الخطير

أولاً، ربما يفسر مثل طرحنا هذا بعض ما جاء في سياقات قرآنية أخرى خاصة بالطير، منها قول الكافرين كما جاء في كتاب الله:

- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩﴾ [يس: 18-19]

  فالكفار يقولون صراحة أنهم قد تطيروا برسلهم، أليس كذلك؟
  والرسل يردون عليهم بالقول بأن "طائركم معكم، أليس كذلك؟
  ولو حاولنا أن نربط هذا السياق القرآني بالسياق القرآني التالي، لربما وجدنا العجب العجاب:
- ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ۝٤٧﴾ [النمل: 47]

حاول أن تربط جيداً - عزيزي القارئ- ما جاء في سورة يس مع ما جاء في سورة النمل لتجد أن جواب الرسل كان مرة بأن طائر القوم معهم (قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ) وجاء مرة أخرى بأن طائر القوم عند الله (قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ)، فما السبب؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن تلك هي رحلة ذلك الطائر، فتارة يكون مع صاحب النفس (قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ) عندما تكون نفس الإنسان في عنقه ويكون يقضاً غير ميت ولا نائم، ويكون بذلك واقع عليه التكليف، وتارة أخرى يكون ذلك عند الله عندما يتوفى الله نفس الإنسان سواء بالموت أم بالنوم.

لكن يبقى السؤال التالي مطروحاً: ما معنى قول الكافرين لرسلهم أنا تطيرنا بكم (قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ)؟

رأينا: لا نريد أن نخوض في ما قاله من سبقنا حول قضية التطيّر، فالقارئ الكريم مدعو لمراجعة ذلك في كتب التفاسير، ولكن ليعذرنا سادتنا العلماء الأجلاء أن نخالفهم الرأي، وليسمعوا رأيا مخالفاً نفتريه من عند أنفسنا، ولهم الحق أن يكون هم الحكم في الحالتين:

أما بعد،

نحن نظن أن التطير لا يحدث إلا عندما يقوم ذلك الطائر الذي ألزمه الله في أعناقنا بالمهمة التي أوكله الله بها، وهي حمل نفس الإنسان ليذهب بها إلى ربها في كل وفاة للإنسان سواء بالموت أو بالنوم، ولكن لمّا كانت الوفاة بالموت تنهي مهمة ذلك الطائر وللأبد فإن حديث الكافرين – في ظننا- كان عن الوفاة بالنوم، فعندما يخلد الإنسان إلى النوم يقوم ذلك الطائر بحمل نفس الإنسان الذي أخلد بها إلى النوم ويطير بها ليضعها عند ربها، وما أن يصحو الإنسان حتى يعود ذلك الطائر بتلك النفس ويعيدها إلى صاحبها، ويبقى ذلك الطائر ملازم لعنق الإنسان لا يتحرك حتى يعود إلى الإنسان إلى نومه مروة أخرى، وهذا يعني – في ظننا- أن التطير (الفعل المشتق من الطائر) لا يحدث إلا والإنسان نائم.

نتيجة مفتراة: فعل التطيّر مشتق من الطائر بدليل الحوار التالي الذي حدث بين الكافرين من جهة ورسلهم من جهة أخرى كما يصورها القرآن الكريم في سورة يس:

- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾ [يس: 18-19]

سؤال: كيف يفسر مثل هذا الطرح قول الكافرين (قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ)؟ أي كيف تطير الكافرون بالرسل؟

رأينا: لمّا كان فعل التطير مرتبطاً بذلك الطائر الذي يقوم بعمله في حالة نوم الإنسان، فنحن نعتقد أن الكافرين يريدون أن ينقلوا الرسالة التالية لرسلهم: أننا (يقول الكافرون) قد تعبنا منكم أيها الرسل، فأنتم قد شكلتم علينا ضغطاً كبيراً لا نستطيع تحمله ليس فقط في صحونا بل أيضاً في نومنا، وأظن ويكأنهم يقولون لرسلهم أننا الآن بعد مسيرتنا الطويلة معكم قد وصلنا إلى حالة أقرب أن تكون هستيرية لأننا نراكم

في منامنا (إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ) كما نراكم في صحونا، فلقد أصبحت قصتكم ترهقنا في نومنا كما ترافقنا في صحونا. وبكلمات عامية نقول أن الكافرين أصبحوا واقعين تحت ضغط "الكوابيس" الليلة بسبب دعوة هؤلاء الرسل.

ولا نجد أن الرسل يردون عليهم بأكثر من الحقيقة بأن طائركم معكم (قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم) وأن طائركم عند الله (قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ)، فتلك هي رحلة طائركم بين أعناقكم وربكم، وليس لنا (نحن الرسل) شأن في ذلك، ويكأن الرسل يقولون لهم بأنه لا دخلنا لنا بتطيركم بنا، فهذا من باب إسرافكم في الأمر (قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) وهو أيضاً من باب فتنتكم (قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ).

ثانياً، ربما يفسر مثل طرحنا هذا قصة أحلام الناس التي تحصل في منامهم، والتي غالباً ما وضع علماء النفس النظريات العلمية لتفسيرها، فسنحاول هنا أن نسقط فهمنا للنص القرآني على هذه الظاهرة، ولكن قبل القيام بذلك نجد لزاماً التأكيد – كما فعلنا على الدوام- بأن ما نقول لا يتعدى أن يكون أكثر من افتراءات من عند أنفسنا، فهي بلا شك ليست موجودة في كتاب الله، بل هي ما نظن نحن أن الدليل القرآني يصدقها. لذا فالباب مفتوح على مصراعيه للتحقق مما نقول سواء بالإثبات أو النفي، ونحن على استعداد للتخلي عن أفكارنا وطرحها كلها في سلة المهملات إن بان الدليل العقائدي الذي يدحضها.

أما بعد،

قصة الأحلام؟

- ⇐ لماذا يحلم الإنسان في نومه؟
- ⇐ لماذا يرى الإنسان في نومه ما يراه في حقيقته وما لا يراه في حقيقته؟
- ⇐ لماذا لا تكون الأحلام مركزة واضحة؟ لماذا تتداخل الصور والأحداث في الأحلام؟
- ⇐ كيف ينام الإنسان أصلاً؟
- ⇐ لماذا يقلق الإنسان فلا يستطيع النوم أحياناً؟
- ⇐ لماذا تحدث مع الإنسان سقطات النوم؟
- ⇐ الخ

افتراءات كاذبة من عند أنفسنا

نحن نتخيل أن كل ذلك يحدث بسبب رحلة الطائر عندما يحمل نفس الإنسان ذهاباً وإياباً في وفاة الإنسان في نومه، ولكن كيف؟

جواب مفترى: عندما يحمل ذلك الطائر نفس الإنسان المتوفى بالنوم فإنه يطير بها مباشرة ليودعها عند بارئها، وفي خلال تلك الرحلة الطويلة جداً بمسافتها، القصيرة جداً بزمنها، تكون نفس الإنسان حاضرة يقظة، فترى من المناظر والمشاهد ما هو مألوف لها وما هو غير مألوف، ولما كانت رحلة ذلك الطائر لا تذهب بنفس الإنسان وتعود بها في طريق واحد في كل مرة ، وإنما تذهب في اتجاهات مختلفة وتسلك مسارات متعددة (ربما بسبب الازدحام المروري)، يرى الإنسان من خلال نفسه المحلقة في جو السماء وهو نائم أشياء مختلفة ويستطلع أحداث متعددة في آن واحد. ولما كانت الرحلة سريعة جداً (محكومة لا شك بسرعة ذلك الطائر)، ولما كان التحليق عالياً (بسبب الارتفاع بالنفس)، لا تستطيع نفس الإنسان أن تركز على حدث واحد في كل مرة أو أن ترى جميع تفاصيله بوضوح تام، فتتداخل الصور والأحداث، ويصعب أحياناً على الإنسان أن يجمعها معاً أو أن يجد بينها رابط واضح متى أفاق من نومه بعد عودة نفسه إلى عنقه.

ولو راقبت طريقة نوم الإنسان لوجدنا أن فعل الذهاب في النوم يحدث بسرعة فائقة جداً، صحيح أنك ربما تأخذ وقت طويل لتنام ولكن فعل الذهاب بالنوم لا يحدث تدريجياً، وإنما يحدث مرة واحدة، فإما أن تنام أو أن لا تنام، وذلك لأن الطائر – في رأينا- سريع جداً في نقله لتلك النفس إلى بارئها، وهذا ما يحدث أيضاً عن اليقظة من النوم، فالطائر يعود في سرعة فائقة حتى لا تكاد تشعر بها.

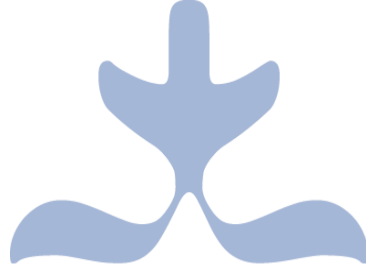
ثم، ألم يحصل لك – عزيزي القارئ- ولو مرة واحدة أن حاولت النوم وما أن غفوت حتى شعرت أنك تهوي في مكان سحيق؟ أو أنك تسقط من مكان مرتفع؟ ألم تستيقظ على الفور؟ فلماذا؟

رأينا: ربما يحدث هذا لأن حركة إقلاع ذلك الطائر بالنفس التي حملها لم تكن موفقة. فعندما حمل ذلك الطائر تلك النفس الموكل بها وطار بها ليأخذها عند ربها، لم يفلح أن يقلع بها إقلاعا طبيعيا كما يحدث في الغالب، لذا حصل وكأنه يسقط من أعلى فعاد بنفس الإنسان إليه ولكن بطريقة فيها شيء من الجهد هذه المرة، وهو ما أظن أنه يسبب للإنسان الشعور بالضيق في تلك الحالة، فيصحو الإنسان وكأنه مخنوقة نفسه.

هذا والله أعلم!!!

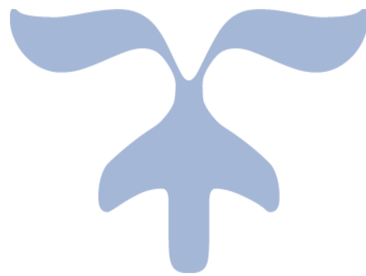
أسأل الله أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشئ من علمه لا ينبغي لأحد غيرنا، إنه هو السميع المجيب.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
18 شباط 2013



بداية الخلق

الجزء السادس



الجزء السادس: من تطبيقات نظريات تحليل الخطاب (1): تحريم لحم الخنزير

ملخّص

نقدم في بحثين متتابعين تطبيقاً عملياً لنظريات تحليل الخطاب اللغوية، يناقش البحث الأول سبب التركيز القرآني على حرمة لحم الخنزير على وجه التحديد، ويناقش البحث الثاني إعراض الناس عن أكل لحوم حيوانات معينة، والتباين الملحوظ في هذا المجال بين المجتمعات المختلفة. وقد تم استخدام المنهجية المتبعة في نظريات تحليل الخطاب في كلا البحثين

البحث الأول: تحريم لحم الخنزير

تتعرض الدراسة الحالية إلى مجتمعات متنوعة كان الخنزير من المحرمات الأساسية (Taboos) في ثقافاتها، كالمجتمع المصري القديم (Ancient Egyptians) والمجتمع اليهودي (Israelites) قديمه وحديثه وكذلك المجتمع الإسلامي (Muslims) . ولإيجاد العلة كان لا بد من تفقد الروابط الذهنية (Retrieving Conceptual Information) التي يمكن إثارتها في النصوص القرآنية والتي تعود إلى هذه الثقافات المختلفة في سياق الحديث عن المحرمات، وقد أدى أسلوب البحث هذا إلى إثارة وجاهة محرمات مماثلة في هذه المجتمعات وفي المجتمعات الأخرى كحرمة ذبح وأكل البقر- على سبيل المثال- في بعض المجتمعات الهندية (Indian Cultures)، وبالمقابل تقبل أكل لحوم الكلاب والحيوانات الأليفة (Pets) والقوارض (Rodents) وما شابه في مجتمعات أخرى (خصوصاً بعض مجتمعات الشرق الأقصى) وقد توصلت الدراسة إلى تصور فكري للتحريم والإباحة من منظور قرآني. وكانت الخلاصة تتمثل في أن تقبل المأكولات أو تحريمها لا علاقة له بأسباب تعود إلى عوامل الصحة البدنية أو الرغبة النفسية أو حتى الثقافة السائدة، وإنما هي أسباب في مجملها عقائدية متوارثة من أصول دينية ذهبت معظم تشريعاتها وبقيت مخلفات لتلك التشريعات، وكان أهمها تحريم لحم الخنزير (Pork). فتحاول الدراسة الراهنة تقديم تفسير قرآني - حسب دليلنا اللغوي- لتحريم لحم الخنزير على وجه الخصوص في هذه الثقافات مجتمعة، كما تناقش الدراسة جغرافية محرمات الأطعمة وذلك بإسقاط المحرمات على خارطة العالم القديم، لتخلص الدراسة إلى افتراض مفاده أن التحريم يتزايد كلما اتجهنا غرباً بناءَ على فهمنا لما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: 44]

للإمعان بمدلولات الآية الكريمة، القارئ مدعو لقرآءة مقالتنا تحت عنوان:"سفينة نوح ونظرية تكون القارات"

الكلمات الدالة : نظريات تحليل الخطاب، التحريم، لحم الخنزير

توطئة

تعتبر هذه المقالة تطبيقاً عملياً لنظرية تحليل الخطاب اللغوية (Discourse Analysis) على النص القرآني. لذا نجد أنه من بالغ الأهمية الإشارة إلى أن هذا البحث هو بحث لغوي خالص، لكننا نرى أن من عظيم الفائدة أن يجد فرصته في النشر في مجلة علمية تعنى بعلوم القرآن الكريم واللغة معاً، فنحن نظن أن التطبيقات الصحيحة والاستفادة المثلى من تلك النظريات اللغوية ربما تفتح آفاقاً جديدة في البحث في مجالات أخرى. وسنحاول تقديم الدليل على مثل هذا الزعم في مقالتنا. ومثالنا الذي نطرحه يتمثل بالإجابة على سؤال يخالج العامة وأهل الاختصاص على حد سواء، يتمحور حول ما يؤكل وما لا يؤكل من المنظور القرآني. ولمّا كان البحث لغوياً خالصاً، فإننا لن نقحم أنفسنا بالآراء العقائدية المتوافرة في الأدب النظري حول الموضوع، فهذا ليس مكانها، فيستطيع القارىء الكريم الرجوع إلى كتب الأحكام إن أراد الاستزادة، ولكن ما يهمنا هو التركيز على جانب التطبيق العملي للنظرية اللغوية في كيفية استنباط الأحكام من خلال الدليل اللغوي فقط، لذا نجد لزاماً التنبيه أنّنا لا نصدر هنا فتاوى أو أحكاماً شرعية بخصوص الموضوع، وإنما جل غايتنا تتمثل في تبيان كيفية التوصل إلى استنباطات من النص القرآني من خلال استخدام أدوات النظرية اللغوية نفسها، ليتم بعدها عرض تلك الأحكام على أهل الدراية والعلم لتمحيص تلك الاستنباطات وتنقيتها.

الإطار النظري:

دلّت معظم الأبحاث اللغوية ضمن إطار نظريات تحليل الخطاب (Discourse Analysis)، وتحليل النص (Text Analysis) على أن المعاني محكومة بالألفاظ، لذا يصبح من الصعب، وربما من باب الاستحالة، أن تعبّر الجملة الواحدة عن كل المعاني التي تدلّ عليها (أنظر Carston 2000). لهذا السبب تبرز الحاجة إلى اللجوء إلى مبدأ الإحالة النصيّة (Intertextuality) في تحليل الخطاب اللغوي، حيث ينصب دور القارئ على تزويد السياق الواحد بمعاني يتم جلبها من سياقات أخرى (أنظر Kolaiti 2008)، وهذا يتطلب من القارىء العمل في مستويات ثلاث من التحليل على النحو التالي:

1. تحليل المفردة على مستوى الجملة التي وردت فيها (Intra-sentential Analysis) أو ما يسميه Kintsch & Van Dijk (1978) بـ Microstructure
2. تحليل المفردة على مستوى النص الكلي (Inter-Sentential Analysis) أو ما يسميه Kintsch & Van Dijk (1978) بـ Macrostructure.
3. تحليل المفردة على المستوى المعرفي الكلي (Sociocultural Analysis) أو ما يسميها Minsky (1975) بـ Frame Knowledge.

وحتى يتم ذلك، تصبح كل مفردة في النص معلومة مستدعِية (Presupposing) لمعلومات مستدعاة (Presupposed) تقوم بدورها بإستدعاء معلومات جديدة، وهكذا، فيصبح النص بأكمله ساحة

للتنقيب عن المعاني. والمهم في هذا الإطار أنّه لا يجوز تحليل المعلومة المستدعِية فقط في سياقها المحلي (Local) دون ربطها بالمعلومة المستدعاة من السياق الكلي (Global) (أنظر Halliday and Hasan 1976). وهذا ما يطلق عليه بمبدأ الإحالة النصية (Intertextuality). ويميز Wilson (1998) بين نوعين من المعلومة يدرجهما تحت عنوانين هما: الإدراك على المستوى المحلي (Local Intuitions) و الإدراك على المستوى الكلي (Global Intuitions)، ويسميها Kintsch & van Dijk (1978) Microstructure و Macrostructure وكلاهما يخدم هدفاً واحداً يتمثل في خلق الترابط الإحالي (Co-referential Coherence) بين مكومات الخطاب الكلي لكي يتبين في النهاية قوة الترابط بين مكونات النص كوحدة واحدة متماسكة (Coherent Whole). ولكن يبقى السؤال الإجرائي متمحوراً حول كيفية الانتقال من مكان إلى مكان آخر داخل الخطاب الواحد. تكمن قوة النظرية في الافتراض بأن هذا الانتقال يمكن أن يتم بجميع الاتجاهات المحتملة، فهذا الانتقال يمكن أن يكون انتقالاً إلى الوراء (Anaphoric) أو إلى الأمام (Cataphoric)، وكذلك يمكن أن يكون داخلياً (Endophoric) أو خارجياً (Exophoric). ولكن الانتقال الأمثل حسب نظرية Sperber and Wilson يكون في اتباع الطريق الذي يتطلب جهداً أقل (Minimum Effort) ويكون له ثمار أكبر (Maximum Effect).

وهنا يجب التأكيد على الافتراض النظري أنّ هذا كله مرتبط بقدرة القارئ على الاستنباط (Inferencing). وتتألف قدرة القاريء ليس فقط من مجموع الحقائق المتوافرة لديه، بل من كل ما هو قادر على استنباطه بناء على تلك الحقائق (انظر Sperber and Wilson 1995: 39)، وهذا ما سنجهد أنفسنا في تجليته في تحليلنا للخطاب القرآني فيما يتعلق بتحريم لحم الخنزير.

تطبيق المنهجية على الخطاب القرآني

تتلخص منهجيتنا إذاً في متابعة إشارات الترابط النصي في القرآن الكريم كله. فلقد دلت الأبحاث اللغوية على أنّ الترابط النصي (Textual Cohesion) يمكن قياسه من الإشارات (Cohesive Elements) التي تعين القارىء على ربط المعلومات بعضها ببعض داخل النص الواحد أو قد ترجعه إلى معلومات وردت في سياقات سابقة أو لاحقة وهو ما نسميه الترابط الإحالي (Referential Coherence) (انظر: Kintsch & Van Dijk, 1978; Givon, 1995). ومن الجدير بالذكر أن هذه الإشارات قد ترد داخل الآية الواحدة أو السياق الواحد (Locally)، وقد ترد في سياقات أخرى (Globally)، ولكن من المفيد أن نذكر هنا أن الترابط النصي لا يعني وجود ترابط أو عدمه، وإنما هي درجة (أو قوة) الترابط التي يجب أن تؤخذ في الحسبان، فقد تكون الإشارة قوية في موطن ما، وقد تكون أقل قوة في موطن آخر، وهكذا. فهي إذاً تدرجية (Continuum)، فارتباط لفظة في آية في موطن ما من القرآن الكريم مع موطن آخر لا شك يثير روابط جديدة، وهكذا. وأشارت الأبحاث العلمية إلى أنّ فهم كيفية ترابط هذه الإشارات تساعد في فهم النص بشكل أكثر دقة (انظر

Strawson (1950; 1964); Chastain (1975); Grice (1975); Halliday and Hassan (1976; 1985); Clark (1977); Kintsch & Van Dijk, 1978; Donnellan (1978); Givón (1983); Reinhart (1983a; 1983b) Hasan (1984); Tannen (1987a; 1987b; 1989); Gumperz (1992); Chafe (2005).

وبتطبيق هذه الفرضيات في تفسيرات الآيات القرآنية، فإننا نفهم أن كلَّ آية قرآنية هي معلومة مستدعية بحد ذاتها، تتطلب استدعاء آيات أخرى من الخطاب القرآني بأكمله حتى يستطيع القارىء خلق حلقات متتالية (Lexical Chains) يفضي بعضها إلى بعضها الآخر بمسوغات مفهومة (Conceptual Ties) لا يختلف الكثيرون في الاستنباطات التي يمكن الخروج بها من ذلك الترابط النصي (Textual Cohesion(انظر Clark 1977). ويتم ذلك بجميع الوسائل والمسوغات اللغوية المتوافرة كإستخدام الضمائر (انظر: Bardovi-Harlig 1983; Reinhart 1983a, b) والحذف (انظر: Reinhart 1983a, b) والابدال (انظر: Chafe 1972; Prince 1981b, 1992; Wallace 1982; Farhady 1982) وترتيب الكلمات (انظر: Gundel et al. 1993; Birner 1994; Birner & Gregory 1998) والتكرار (انظر: Yule 1999; Leech 2004) والإعراب (انظر: Grimes 1975; Siddharthan 2004) والإشتقاق (انظر: Siddharthan 2004)، الخ. وما ينتج عنها من استباطات (انظر: Clark 1977; Kintsch & Van Dijk, 1978; Eisterhold 1983). وما دام أن الغرض هو تطبيقي، فلن ندخل بالتفاصيل النظرية حول الموضوع وإنما سننطلق فوراً إلى التطبيقات العملية للوصول إلى الاستنباطات التي سيفضي إليها النقاش.

مقدمة

بادئ ذي بدء، لابد من الإشارة إلى أن التزامنا المطلق بحرفية النص القرآني تدعونا إلى البوح بعقيدتنا التي مفادها أن التحريم الذي جاء في كتاب الله عن الخنزير يخص لحم الخنزير فقط، فالله قد حرم الميتة بكليتها وكذلك المنخنقة والموقوذة والنطيحة والمتردية وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب، ولكن تحريم الخنزير جاء خاصاً بلحمه فقط:

- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [البقرة: 173]
- ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾ [المائدة: 3]
- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾ [النحل: 115]

فنحن نفتري القول أنه لو كان التحريم يشمل الخنزير على كليّته لربما جاءت على الأقل واحدة من هذه السياقات القرآنية على نحو "حرم عليكم الميتة والدم والخنزير"، الأمر الذي يدعونا أن نتساءل عن

السبب الذي من أجله جاء التحريم خاصاً بلحم الخنزير، وحتى نصل إلى إجابة على مثل هذا التساؤل نظن أننا بحاجة أن نعود إلى قصة التحريم في المأكولات منذ بدأت رحلة البشر على الأرض.

لا أظن أنه لو خير الإنسان بين أن يأكل من لحم أخيه الإنسان أو أن يأكل من لحم الخنزير لاختار أن يأكل من لحم الخنزير، لأن النفس لا تتقبل إطلاقاً أن يأكل الإنسان من لحم أخيه الإنسان مصداقاً لقوله تعالى "أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ"، ولكن بالرغم من ذلك، فلا يجد الناس ضيراً في أن ينقل دم إنسان إلى أخيه الإنسان أو أن يأخذ من أعضاءه، وهكذا. فيمكن للأم أن تتبرع بكليتها لابنها لكنها محرمة عليه في النكاح، فالحرمة – في رأينا- خاصة بالأكل والنكاح فقط.

تبدأ قصة التحريم (Taboo) في المأكولات منذ اللحظة الأولى لسكن آدم وزوجه الجنة، وكان ذلك جليّاً في قوله تعالى:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف: 19]

تؤكد هاتان الآيتان الكريمتان أنّ الأكل كان في البدء متصفاً بسمتين رئيسيتن؛ أولهما أنّ الأكل يسبب التمتع " وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا "، وثانيهما أنّ الأكل مرتبطاً بالمشيئة البشرية، أي خاصة بالفرد، فمن شاء أكل ومن شاء ترك (وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا)، فلم يكن محظوراً على الإنسان الأكل إلاّ من نوع واحد من الطعام (وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ)، فالأطعمة من الأصول الحيوانية كاللحوم والاسماك وغيرها لم يصدر بحقها أي نوع من التحذير، وصدر أمر واحد بالتحذير من الأكل على نوع واحد من الأطعمة ذات الأصول النباتية وهي تلك الشجرة. ومن هنا تبدأ رحلتنا في تفقد الروابط الذهنية التي نستطيع من خلالها إيجاد حلقات متتالية (Lexical Chains) يبين من خلالها الترابط النصي في القرآن على أساس وحدة واحدة متماسكة (Coherent Whole). لذا، نستطيع القول أنّ الآيتين السابقتين تثيران تساؤلات عديدة، يصبح لزاماً متابعتها في النص القرآني بأكمله ليستبين في النهاية كيف ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالموضوع الذي وردت في سياقه، ألا وهو موضوع التحريم في المأكولات، نذكر منها على سبيل المثال:

⇐ لماذا حذّر الله سبحانه وتعالى آدم وزوجه من الإقتراب من تلك الشجرة؟
⇐ كيف حصل التحريم لأنواع أخرى (معينة) من الطعام بعد ذلك؟

التحذير من الاقتراب من الشجرة

إنّنا نعتقد جازمين أن الفكر الإسلامي السائد ربما يكون قد أخفق في شرح قصة التحريم الأولى، مدعيّاً أنّ قصة الأكل من الشجرة كانت اختباراً لآدم وزوجه في الجنة، ولمّا فشل آدم وزوجه في ذلك الاختبار، أمره الله بالهبوط إلى الأرض، ونحن نظن أنّ ذلك غير صحيح للأسباب التالية:

أولاً، إنّ خلافة الله لآدم على الأرض كانت ستحصل سواءً أكل آدم وزوجه من تلك الشجرة أو لم يأكلا، فالله سبحانه قضى بخلافة آدم الأرض حتى قبل أن يسكنه الجنة، وتسلسل الاحداث جلي في سورة البقرة

(1) القرار الإلهي باستخلاف بشر من طين:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: 30]

(2) تعليم الله لآدم

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: 31-33]

(3) الأمر الإلهي بالسجود لآدم

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 34]

(4) الأمر الإلهي لآدم وزوجه السكن في الجنة

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]

(5) وقوع آدم وزوجه في مكيدة الشيطان

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٣٦﴾ [البقرة: 36]

(6) قبول توبة آدم

- ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ [البقرة: 37]

(7) الأمر الإلهي للجميع بالهبوط

- ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٨﴾ [البقرة: 38]

فهذه الآيات الكريمة تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنّ القرار الإلهي باستخلاف آدم في الأرض كان سبباً (وليس نتيجة) للأكل من الشجرة. فالله سبحانه وتعالى يخبر الملائكة بخلافة آدم حتى قبل تسويته " وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ "، ونحن نثير هنا التساؤل الافتراضي التالي: ماذا لو لم يأكل آدم وزوجه من تلك الشجرة؟ هل كان ذلك سيحول دون خلافتهم الأرض؟!

ثانياً، عندما حذّر الله سبحانه بنفسه آدم وزوجه من الأكل (أو حتى الاقتراب) من الشجرة علّل هذا التحذير بالقول " فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ "، قال تعالى:

- ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ [البقرة: 35]

ونحن نظن أنّ الظلم في سياقه القرآني يعني ارتكاب السوء بعد حصول العلم فيه (وسنتعرض بالتفصيل لهذا المبحث بعد قليل)، فآدم عَلِمَ من الله سبحانه أنّ الأكل من الشجرة أمر خاطيء فتحصل له العلم بذلك، ولكنّه نزل عند رغبة الشيطان فأكل من الشجرة، وعندما عاد وزوجه إلى ربهما، أقرا بالظلم الذي ارتكباه:

- ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأعراف: 23]

المهم في الموضوع أنّ الله بيّن لآدم وزوجه عاقبة الأكل من الشجرة، فكانت على نحو " فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ، ولم تكن على نحو "فتكونا من الخارجين" أو "فتكونا من الهابطين"، ونحوهما. فتحليل النص القرآني على المستوى المحلي (Intern-Sentential Analysis) يظهر أن عاقبة الأكل من الشجرة لا تكون بأي حال من الأحوال الهبوط أو الخروج من جنة الفردوس كما يعتقد الكثيرون، لأنه لو كانت عاقبة الأكل الهبوط، لربما جاءت الآية الكريمة على نحو "وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فتكونا من الهابطين أو فتكونا من المخرجين"

ثالثاً، علّل الشيطان لآدم الأكل من الشجرة بالحجة التالية:

- ﴿... وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 20]
- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: 120]

فتقبل آدم تلك الحجة، وأكل من تلك الشجرة:

- فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ
- فَأَكَلَا مِنْهَا

إن ما يعنينا هنا هو أنّ آدم تقبل فكرة أن يكون هناك ما هو أفضل مما هو فيه الآن، أليس كذلك؟ فلو كان آدم في جنان الخلد (كما ظن الكثيرون وزعموا)، لما كان لحجة الشيطان تأثير فيه، فقبول آدم بفكرة وجود شجرة الخلد يدل على حصول العلم لآدم أنه ليس من الخالدين في هذا المكان. ونحن نعلم أنّ من أبسط سمات جنان السماء التي سيؤول إليها المؤمنون بعد الحساب أنها جنان خلد.

وهنا ترد القصة بلفظتين مختلفتين " ذَاقَا " فَأَكَلَا "، ولعلنا نجزم أن هذا مثال يثبت ما ذهبنا إليه في إحدى مقالاتنا السابقة كدليل على عجز اللغة العربية في احتواء كلام الله، فما حصل لآدم وزوجه هو أنهما ذاقا الشجرة ولم يكتفيا بذلك بل أصرّا على المضي قدماً في فعلتهم، فبدأا مترددين فكان الفعل على نحو "فذاقا" وانتهى بعملية "الأكل"، ولكن لمّا عجزت العربية عن إيجاد فعل واحد يجمع الحدثين " ذَاقَا " و "أكلا" في مفردة واحدة، قدمت الصورة كما حصلت فعلاً: فهما لم يأكلا مباشرة ولكنهم لم يتوقفا عند المذاق فقط، ويظهر سيناريو مشابه في الآيتين الكريمتين التاليتين:

- ﴿... وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ... ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: 160]
- ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ... ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: 60]

لاحظ عزيزي القارىء كيف تم التعبير عن الموقف ذاته بلفظتين مختلفتين " فَٱنۢبَجَسَتْ "، و " فَٱنفَجَرَتْ "، وحتى لا نختلف كثيراً، فالانفجار لا شك أقوى من الانبجاس، فعين الماء انبجست أولا ثم انفجرت بعد ذلك، ولكن ما هي المفردة العربية التي يمكن أن تعبر عن المعنين معاً؟ يتأكد ذلك في قوله تعالى:

- ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: 69]

فهل فعلا قال الله للنار يا نار كوني (بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا) من خلال مفردتين منفصلتين؟ لو كان الأمر كذلك لما تحمل إبراهيم برد النار قبل أن تكون سلاماً. إننا نظن أن الله قد استخدم مفردة واحدة تحمل المعنين معاً، ولكن لما عجزت اللغة العربية أن تحمل في قاموسها مثل هذه المفردة فصّلت تلك المفردة قرآناً عربياً على نحو (بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا).

رابعاً، عندما أكل آدم وزوجه من الشجرة حصل لهما مكروه:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]
- ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

وكان ذلك هو مقصد الشيطان وغايته من الوسوسة: حصول ذلك المكروه لآدم وزوجه، ليس ليخرجهم من جنان الخلد إلى الأرض لأنه يعلم أن القرار الإلهي بخلافة آدم الأرض لا محالة حاصل، لذا جاء قوله تعالى على نحو:

- ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا ... ٢٠﴾ [الأعراف: 20]

وليس ما تلفّظ الشيطان به صراحة لآدم وزوجه:

- ﴿... وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]

يتضح إذاً من قصة التحريم الأولى أنّ التحذير لم يكن بداعي الاختبار (كما ظن الكثيرون)، وإنما لما يترتب عليه من مكروه، فالله سبحانه حذّر آدم وزوجه من الأكل من تلك الشجرة حتى لا يتحصل لهما ذلك المكروه، وهنا تتبلور الحلقة الذهنية الأولى التي يمكن ربطها بقصة التحريم في المأكولات، وهي الاستنباط بأن أساس التحريم في الماكولات هو الحيلولة دون حصول المكروه.

خامساً، لقد علم الشيطان أنّ الأكل من الشجرة سيترتب عليه حصول المكروه لآدم وزوجه، وكان ذلك المكروه هو أنْ تبدى لهما ما وري عنهما من سوآتهما:

- ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]

فـ اللام في قوله " لِيُبۡدِيَ " لام (الهدف) وليس لام التعليل (فهي تدل على ما يخفي الشيطان في نفسه عندما وسوس لآدم وزوجه)، فالشيطان كان يبطن ذلك الهدف المعلوم بالضرورة لديه، ولكنّه علّل الأمر

لآدم وزوجه على غير تلك الشاكله، فدلهما بغرور على نحو " أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ " و " هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى " وأصر على ذلك عندما ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: 21].

لاحظ عزيزي القارىء أن خطاب الشيطان في قوله تعالى أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ جاء على صيغة المثنى موجها بكل تأكيد لآدم وزوجه، أما خطاب الشيطان في قوله تعالى " هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى " فقد جاء على صيغة المفرد موجهاً لشخص آدم دون زوجه. يدل هذا على أن وسوسة الشيطان توجهت مرة لآدم وزوجه ومرة أخرى لآدم فقط دون زوجه، ولو دققنا النظر في كل حاله لوجدنا أنّ الشيطان توجه لكل شخص بما يحب ويرغب، ف حواء كان يهمها " أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ "، أما آدم فقد وجه له خطاب بحجة أكثر إغواء " وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى "، وهذا فرق واضح بين ما تميل إليه نفس الانثى وتحبه وما تميل إليه نفس الرجل وتستهويه.

سادساً، أكل آدم وزوجه من الشجرة وهما غير ناسيي الأمر الإلهي لهم بالحذر من الاقتراب من الشجرة، وذلك لأنّ الشيطان عندما كان يحاول إيقاع آدم وزوجه في المعصية ذكّرهما بنفسه بالأمر الإلهي الذي صدر لهما من ذي قبل:

- ﴿... وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 20]

فالانسان حتى اللحظة لا يقع في معصية إلاّ ويتذكر أمر ربه قبل الوقوع فيها، فتنازعه نفسه، ويحدث ذلك الصراع الداخلي، وفي هذه الحالة يكون الإنسان من الظالمين إنْ هو تابع هوى نفسه ووقع في المعصية، أما إذا عمل شخص عملاً ما وأخطأ فيه ولم تنازعه نفسه قبل الوقوع في الخطأ فلا يكون من الظالمين.

وهذا الطرح يضطرنا لما يبدو للوهلة الأولى بأنه خروج عن سياق الموضوع الرئيس للتعرض لمبحثين اثنين، أولهما موضوع الشجرة التي أكل منها آدم وزوجه، وثانيهما معنى لفظة "الظلم" كما وردت في السياقات القرآنية التي وردت في قصة النهي عن الأكل من الشجرة، وسنرى لاحقاً أنّ هذا استطراد ضروري لما سيترتب عليه من نتائج جمة ذات صلة وثيقة بموضوع التحريم.

ما هي الشجرة التي حذر الله آدم وزوجه من الاقتراب منها؟

ما هي تلك الشجرة التي حذر الله آدم وزوجه من الاقتراب منها؟ ولماذا حذّر الله آدم وزوجه من الاقتراب منها؟ ولماذا كانت الشجرة أصلاً موجودة في جنة آدم؟ فهل لو كانت الشجرة غير موجودة، أكان آدم وزوجه سيقعان فريسة مكيدة الشيطان؟

لقد بيّنا سابقاً أن الله سبحانه حذّر آدم وزوجه من الاقتراب من الشجرة ليس اختباراً لهما، وإنما لما سيترتب على ذلك من المكروه الذي سيحصل لهما إن أكلا منها، قال تعالى:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]

ولكن، لماذا كانت الشجرة موجودة في الجنّة أصلاً؟ إنّ محاولة حل هذا السؤال يتطلب- إثارة سؤال آخر وهو: كيف علم الشيطان بخبر الشجرة؟ وكيف علم أنّ الأكل من الشجرة ستكون عاقبته على نحو ما كان؟ إننا نزعم أنّ هذا دليل كبير على أنّ الجنّة التي كان يسكنها آدم وزوجه لم تكن جنّة الخلد إطلاقاً، وأن تلك الجنّة كانت مأهولة بجنس آخر من خلق الله وهم الجن بدليل تواجد الشيطان مع آدم وزوجه ليوسوس لهما، وبدليل أن الله عندما أمر الجميع بالهبوط قال لهم:

- ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: 123]

أنظر مقالتنا تحت عنوان: "هل فعلاً وسوس إبليس لآدم؟" لقد أثرنا في تلك المقالة التسآؤل التالي: إذا كان الله قد طرد إبليس من المكان لحظة أن رفض السجود لادم وأمر آدم بالسكن وزوجه في الجنة، فكيف استطاع إبليس إذاً الدخول إلى المكان حتى يوسوس لآدم وزوجه؟!

فمفردة " جَمِيعَۢاۖ " تدل على أنّ المأمور بالهبوط ليس آدم وزوجه فقط، فمن غير المستساغ أن يوجه الخطاب لشخصين إثنين على نحو "أنتما جميعاً"، ولكن يصبح الأمر أكثر قبولاً عندما يكون الخطاب موجهاً لمجموعتين، لذا فإننا نعتقد أن الأمر الإلهي بالهبوط صدر لجنس البشر ممثلين بآدم وحواء وكذلك للجن ممثلين بالشيطان الذي وسوس لآدم وزوجه، (لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع انظر مقالتنا "هل فعلاً وسوس إبليس لآدم؟) وكذلك بدليل العداوة في قوله تعالى " بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ "، فلا يوجد عداوة بين آدم وزوجه، ولكنّ العداوة مستحكمة بين الجن ممثلين بالشياطين من جهة والإنس من جهة أخرى .

نستنتج إذاً أنّ الشجرة كانت موجودة في الجنة قبل وجود آدم وزوجه، ولهذا يعلم قاطنو المكان (الجن على وجه التحديد) ذلك التحذير الرباني من الاقتراب منها، فالله - لا شك - حذّرساكني الجنة من الاقتراب منها قبل أن يحذر آدم وزوجه، وربما لذلك تحصّل للشيطان العلم بخبر الشجرة حتى قبل سكن آدم الجنة، فاستخدمها كمكيدة ليوقع آدم في المعصية.

إن الدليل على وجود الجن في نفس المكان قبل آدم وزوجه يمكن استنباطه من تسلسل الآيات الكريمات التالية في سورة الحجر:

- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨﴾ [الحجر: 26-28]

ويبرز هنا التساؤل الأكبر التالي: لماذا حرّم الله تلك الشجرة على الجن؟ إننا نظن أن ذلك ربما يعود لنفس السبب الذي حرم الله من أجله بعض الأطعمة على بني إسرائيل مثلاً:

- ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: 160]

وهذا الافتراض يثير بدوره تساؤلاً جديداً: إذا كان الله سبحانه قد خلق الجن قبل الإنس، فلم جاء قراره الإلهي باستخلاف البشر (وليس الجن) في الأرض؟ فالتساؤل المشروع هو: لماذا كان الاستخلاف للإنس وليس للجن؟ لا شك أن سنن الله الكونية تقتضي أن يبدل الأقوام عندما يرتكبوا الظلم ولا يتراجعوا عنه بالتوبة، فكم من الأمم أبيدت واستبدلت بعد أن كانت نعم الله جارية لهم، وكذلك هي حالة استخلاف الانس (ممثلين بآدم وزوجه) بدلاً من الجن بالرغم من السبق الزمني الذي كان للجن.

وربما يفسر مثل هذا التصور كيفية علم الملائكة المسبق بوجود من يسفك الدماء على الأرض، يوم أخبرهم الله بخلافة آدم الأرض. إننا نزعم أن وجود الجنس الآخر (وهم الجن) وارتكابه الظلم على الأرض كان هو من علم الملائكة باستباق الأحداث.

فوجود الظالمين في ذلك المكان مثبت بدليل وجود من يعمل المكائد (كالذي وسوس لآدم لمخالفة الأمر الرباني) في نفس المكان الذي كان آدم وزوجه متواجدين فيه. فسكان المكان (وأقصد الجن على وجه الخصوص) كان منهم المؤمن ومنهم الكافر، ولنخلص إلى القول أن الجنّ كانوا يسكنون تلك الجنّة قبل آدم ,ولكن بعضهم ظلموا أنفسهم، فحرّم الله عليهم بعض تلك الأطعمة (تلك الشجرة).

ومما لاشك فيه أن هذا الطرح يثير روابط ذهنية عديدة ، فقد يثير هذا القول استغراب الكثيرين حول ماهية المكان الذي كان آدم وزوجه متواجدين فيه مع الجن قبل الوقوع في المعصية: هل فعلاً كان المكان الذي تسكنه الشياطين مع آدم وزوجه على الأرض قبل الهبوط؟ نعم هو كذلك، وهذا ما نحن بصدد تبيانه في بحثنا هذا لنصل من خلاله إلى موضوع تحريم الأطعمة. وحتى نصل إلى مبتغانا، لا بد من إثارة سلسة من التساؤلات المترابطة: ما هي تلك الشجرة؟ ولماذا هي بالذات؟

ما هي تلك الشجرة؟

إن هذا السؤال غاية في الخطورة لاننا سنقفز من خلاله إلى نتيجة قد لا يحمد عقباها لنا على وجه التحديد. فنقول بعد التوكل على الله أننا نفهم أنّ تلك الشجرة هي ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: 18]
- ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المؤمنون: 19]
- ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: 20]

إننا نظن أنّ الشجرة التي حذر الله آدم من الاقتراب منها هي تلك الشجرة التي تخرج من طور سيناء.
إن هذا الإدعاء يعني أنّ جنة آدم كانت على الارض وليست في السماء، للتفصيل في هذا الموضوع ندعوا القارىء الكريم إلى مراجعة مقالتنا تحت عنوان: "أين كانت جنة آدم وزوجه؟"

أولاً، نطلب من القارىء الكريم أن يربط ما تنبت به هذه الشجرة (بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ) بما حصل لآدم وزوجه عندما ذاقا الشجرة (فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا)، قال تعالى:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]
- ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

(فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ) (بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا)، إنّ أبسط ما تعنيه هذه العبارة السببية (أي المؤلفة من سبب ونتيجة) أن سوءة آدم وزوجه لم تكن بادية لهما إلا لحظة الأكل من الشجرة، فقد كان الأكل من الشجرة هو سبب ظهور السوءة، وهنا نتوقف لنتساءل: كيف إذاً بدت لهما سوآتهما؟ كيف كان الأكل من الشجرة سبباً لأن تبدى لهما سوآتهما؟

لقد ذكرنا في مقالة سابقة لنا أن السوءة لا تعني العورة فقط كما روّج له معظم الفكر الديني السائد وإنما تعني الجسد بأكمله بدليل قصة ابني آدم في قوله تعالى:

- ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: 31]

فلا أخال أنّ الأخ (الذي طوّعت له نفسه قتل أخيه) كان يحاول تغطية عورة أخية فقط ، ولا أخال أن الله بعث الغراب (الذي كان يبحث في الأرض) ليريه كيف يواري عورة أخيه كما يظن الكثيرون، بل للتّخلص من الجثّة بأكملها بالدفن في باطن الأرض، ف لربما أن عورة الأخ كانت مغطاة لحظة أن قتله أخوه.

للتفصيل حول هذه القضية انظر مقالتنا تحت عنوان لماذا يدفن الناس موتاهم؟ ومقالتنا تحت عنوان لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه؟

نعود إلى صلب الموضوع بالفهم أنّ سوءة أدم وزوجه (سَوْآتُهُمَا) قد بدت لهما لحظة الأكل من الشجرة لنطرح التساؤل السابق بصيغة جديدة: لماذا بدت السوءة (الجسد بأكمله) عندما أكلا من الشجرة؟ وكيف كانت إذاً أجسادهم قبل الاكل من الشجرة؟

لقد زعمنا في مقالة سابقة أن لون بشرة آدم وزوجته (أي لون الجسد) لم تكن بادية لهما قبل الأكل من الشجرة، وذلك لأنّ آدم وزوجه كانا قبل الأكل من الشجرة نورانيين بدليل أنّ الله الذي هو نور السموات والأرض:

- ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: 35]

هو من نفخ بنفسه من روحه في آدم لحظة أن بعث الحياة فيه:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: 28-29]
- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: 71-72]

لنخلص إلى القول الذي مفاده أن آدم وزوجه التمسا ذلك النور من مصدر النور الحقيقي فكانت سوآتهما غير بادية لأنها نور خالص، وخسر آدم وزوجه تلك النورانية لحظة أن أكلا من الشجرة، فكيف حصل ذلك؟

إنّنا نعتقد أن ذلك لا يتم إلا إذا كانت تلك الشجرة التي أكل منها آدم وزوجه تنتج صبغاً يلوّن جلود الأكلين منها. وهنا تظهر في كتاب الله قصة شجرة طور سيناء التي لم تذكر في محض الحديث عن الأكل، وإنما منفصلة في آية مستقلة تتحدث عن صبغ للآكلين، فتلك الشجرة التي تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين (تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ)، فمن أكل من تلك الشجرة سيصبغ جسده، ولا شك أنّ الجسد عندما يصبغ يتغير لونه، ولا شك كذلك أنّ اللون هو أساس الرؤية. وبكلمات بسيطة نحن نزعم القول أن آدم اكتسب النور من مصدر النور الحقيقي يوم أن نفخ الله فيه من روحه، فكانت سؤاتهما غير بادية لأنها نور خالص، وخسر آدم وزوجه تلك النورانية لحظة أن أكلا من الشجرة لأنّ فيها صبغاً لمن يأكل منها، وعندما تلونت جلودهما وأصبحا قادرين على رؤية أجسادهما، كان لزاما تغطية تلك الأجساد:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: 22]
- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: 121]

لاحظ عزيزي القارئ أنك لا تستطيع رؤية تفاصيل سطح القمر أو الشمس على سبيل المثال بالرغم من أنهما في الحقيقة أجسام ترابية وصخرية وكتل نارية ملتهبة، لكن الرؤيا الحقيقية لهذه الأجرام منعدمة بسبب الضوء الساطع منهما.

ثانياً، لننظر إلى السياق الأوسع الذي وردت فيه قصة شجرة طور سيناء كما ترد في سورة المؤمنون:

- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: 18-20]

ألا ترى أن تلك الشجرة تنبت في الجنات التي أنشأها ربنا لنا على الأرض (وليس في السموات)؟ ثم لندقق النظر في النص أكثر: ألا ترى أنّ في تلك الجنات نخيل وعنب وفواكه كثيرة نأكل منها؟ ولكنّنا لا نأكل من الشجرة التي تخرج من طور سيناء، فلقد جاء الحديث عن تلك الشجرة في الآية (20) منفصلة عن الآية التي سبقتها والتي تتحدث عن الثمار التي خصصت للأكل في تلك الجنات، أي لقد جاءت بعد الانتهاء من تلك الأطعمة التي أنشأها لنا ربنا في تلك الجنات (قارن ما جاء في الآية 19 مع ما ورد في الآية 20)، ثم لندقق النظر في الخطاب الإلهي لنسأل: لمن وجّه الخطاب؟ ثم لنلاحظ كذلك صيغ الفعل الماضي (وَأَنْزَلْنَا، فَأَسْكَنَّاهُ، فَأَنْشَأْنَا). فلو ظن البعض أنّ الخطاب موجه للبشرية بأكملها لبرز التساؤل الكبير: وما دخل شجرة طور سيناء بمن يسكن القارة الأوروبية أو الأسترالية أو الأمريكيتين، الخ؟

نعم، تلك هي – في رأينا- جنات آدم وزوجه، فلقد كان فيها نخيل وأعناب وفواكه كثيرة ليأكلوا منها، وفي الوقت ذاته كانت فيها تلك الشجرة التي تخرج من طور سيناء والتي تنبت بالدهن وصبغ للآكلين (وهي التي لم يخصصها ربنا للأكل كما خصص النخيل والأعناب والفواكه الكثيرة التي جاء ذكرها في الآية 19). لذا، عندما أكل آدم وزوجه من الشجرة التي لم تخصص للأكل صبغت جلودهم فتلونت، وبكلمات علمية ربما يمكننا أن نزعم القول أن آدم وزوجه اكتسبا من تلك الشجرة جينات اللون، فتلونت جلودهم وتلونت جلود ذريتهم من بعدهم، فولدوا الأبيض والأصفر والأشقر والأسمر والاسود، بسبب صبغ تلك الشجرة التي حذرهم الله منها.

ثالثاً، لعلنا بحاجة أن نجلب الانتباه إلى فكرة وجدناها في كتاب الله فيها ما قد يبدو للوهلة الأولى من الغرابة ما يستدعي التوقف عندها. وتتلخص تلك الفكرة بأن القرآن الكريم يسرد موقفين اثنين فقط تمت فيهما المخاطبة الإلهية المباشرة لخلقه، وهما خطاب الله مع آدم لحظة أن أسكنه الجنة وحذره من الاقتراب من الشجرة:

- ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: 19]
- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 20]

وثانيهما، مخاطبة الله سبحانه نبيه موسى عليه السلام:

- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ [القصص: 29]
- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: 30]

فلو دققنا النظر بمفردات هذه الآيات الكريمات ملياً، لوجدنا أن هناك الطور، وهناك حادثة المناداة، وهناك البقعة المباركة وهناك الشجرة. فهل ذلك كله من قبيل المصادفة؟

نحن نزعم القول أن ذلك لم يكن مصادفة، فلو تفحصنا هذه المفردات بشيء من الدقة، لوجدنا أن الله نادى موسى من جانب الطور في البقعة المباركة من الشجرة، وقد نادى الله آدم وزوجه وهما في مكان مبارك عند الشجرة، أليس كذلك؟

إننا نعتقد جازمين أنّ الحدثين متصلان لأنهما – في ظننا- حصلا في نفس المكان. فمخاطبة الله لآدم ومخاطبة الله لموسى (الاتصال المباشر من البشر مع الله) تمت في المكان نفسه، فالله سبحانه لم يخاطب بشراً قط غير آدم وموسى، وتلك المخاطبة تمت في المكان نفسه بدليل توافر العوامل الجغرافية ذاتها في الحالتين. ولنعقد مقارنة بين الحالتين كما ترد في السياقات القرآنية:

أ. لندقق النظر بما تحصّل لآدم وحواء في الجنة، ثم لنربط ذلك مع ما تحصّل لقوم موسى في ذلك المكان.

جاء في سورة البقرة في شأن آدم وزوجه من جهة (البقرة 35) وموسى وقومه من جهة أخرى (البقرة 58):

- ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾ [البقرة: 58]

وجاءت المقارنة نفسها مرة أخرى في سورة الأعراف:

- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف: 19]

- ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأعراف: 161]

ب. ثم لننظر كيف كان موسى لحظة الخطاب:

- ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء: 10]
- ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: 52]
- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص: 46]

لاحظ كيف تتكرر فكرة المناداة (مناداة رب العالمين لنبيه موسى)، وما يعنينا في الموضوع أنّ تلك المناداة الربانية لم تتحصل إلاّ لآدم من قبل:

- ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: 22]

وقد يرد البعض بالقول ولكن تلك المناداة الإلهية لآدم حصلت فقط بعد المعصية، وجاء الخطاب قبل المعصية على النحو التالي:

- ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: 35]

فنقول نعم، إنّ فكرة القرب والبعد المكاني للذات الإلهية واضحة في قصة آدم، فقبل المعصية جاء الخطاب من الله لآدم وزوجه على صيغة القرب المتمثلة في قوله تعالى:

- ﴿...وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: 35]

وتحول الخطاب بعد المعصية على النحو التالي:

- ﴿... وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: 22]

فقبل المعصية نجد القرب الإلهي في كلمة "هذه الشجرة"، ولا شك أن القريب مكانياً لا يحتاج المناداة (فترد الصيغة على نحو: قال ويقول ونحوهما)، ولكن المناداة تتحصل لمن كان بعيداً عن الآخر في المكان (فترد الصيغة على نحو نادى ونادي ونحوهما)، فحصلت بذلك مناداة رب العالمين لآدم لحظة البعد المكاني، وكذلك حصلت المناداة الإلهية لموسى في المكان نفسه للبعد المكاني بين موسى وربه، وقد

يبادرنا البعض بالقول: كيف ذلك ورب العالمين موجود في كل مكان ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وهو أقرب إلينا من حبل الوريد؟ فنرد على ذلك بالقول بأننا نتحدث عن المكان الجغرافي (وليس عن علم الله) ، للتفصيل في هذا الموضوع: انظر مقالتنا تحت عنوان "سفينة نوح ونظرية تكوّن القارات". فجغرافياً (مكانياً) لا شك أن هناك مسافة بين الإله والبشر، لذا فالمخاطبة تحصلت بالمناداة، انظر كيف ترد فكرة المناداة في كتاب الله:

- ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٞ لَّا يَعْقِلُونَ ٥٨﴾ [المائدة: 58]
- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمْۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [الأعراف: 44]
- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٗا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ٤٨﴾ [الأعراف: 48]

وتحصل المناداة كذلك عندما يكون الخطاب من البشر إلى ربهم، فها هو نوح ينادي ربه:

- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ٤٥﴾ [هود: 45]
- ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ٧٦﴾ [الأنبياء: 76]

وها هو أيوب ينادي:

- ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [الأنبياء: 83]

وذا النون ينادي:

- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: 87]

وزكريا:

- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدٗا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ [الأنبياء: 89]

ولكن الله نفسه هو من نادى موسى:

- ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ [الشعراء: 10]

نخلص إلى القول أنه بسبب البعد المكاني بين الإله وموسى، حصل الخطاب على نحو "نادى"، وحتى يتيقن القارىء من وجود البعد المكاني بين الإله ونبيه موسى ندعوه ليدقق النظر بمفردات الآية نفسها:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾ [مريم: 51-52]

وسؤالنا هنا يتمحور حول ورود عبارة " وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا "، فما معنى ذلك؟ أي كيف حصل القرب لموسى؟ فإذا كان الله موجوداً فيزيائياً في كل مكان، فما داعي ورود عبارة" وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا "؟ وما هو أصلاً القرب الذي حصل لموسى؟ إننا نظن أن ذلك لا يعني أكثر من القرب المكاني لموسى من ربه؟ وبسبب ذلك القرب تجرأ موسى فطلب الرؤية المباشرة للذات الإلهية)للحديث حول احتمالية الرؤية المباشرة للذات الإلهية انظر مقالتنا تحت عنوان: هل هي معجزات أم آيات بينات؟)

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٤٣﴾ [الأعراف: 143]

فمن أهم معاني "قرب" في السياقات القرانية هو القرب المكاني، قال تعالى:

- ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: 222]
- ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٥﴾ [آل عمران: 45]

للتدليل على قرب عيسى بن مريم من الذات الالهية مكانياً نجلب انتباه القارىء الكريم إلى الآية القرآنية التالية:

- ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ [آل عمران: 55]

فعيسى ابن مريم لم يتحصل له القرب المكاني من الذات الإلهية في الحياة الدنيا وانما بعد أن توفاه الله ورفعه. لهذا فقربه يختلف عن قرب آدم وموسى.

- ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ۝١٧٢﴾ [النساء: 172]

- ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ [الأعراف: 113-114]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨﴾ [التوبة: 28]

فصيغة "قرب" تفيد إذاً القرب المكاني، فآدم وموسى وعيسى هم الأنبياء الذين حصل لهم القرب المكاني من الذات الإلهية.

وهنا قد يرد البعض بالقول: وكيف نفسر الآية الكريمة التالية إذا كانت "قرب" تعني القرب المكاني:

- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: 16]
- ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ٨٣ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ٨٤ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ٨٥﴾ [الواقعة: 83-85]

فنرد بالقول أنّ المدقق بهذه السياقات يجد الدقة القرآنية في استخدام الضمير "نَحْنُ" (وسنتعرض لموضوع الضمائر في مقالة أخرى)، ولكن جل القول أن الله لم يقل هنا "وأنا" بل قال "نَحْنُ" لتدلّ على إشتراك آخرين بالقرب، ولا شك أنهم الملائكة الموكل إليهم أمر البشر، فالله قريب من الناس بعلمه والملائكة قريبن من الناس مكانياً، ولتوضيح الفكرة نقدم مثال "ذوي القربى":

- ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾ [البقرة: 83]

فلا شك أن صيغة "ذي القربى" تعني الاقارب الذين لهم ارتباط دم بالشخص، فهناك إذاً قرب بينك وبينهم ولكن قد لا يكون ذلك القرب مكانياً، فقد يكون قريب لك يسكن أقصى اطراف الارض، فبالرغم من بعده المكاني يبقى من ذوي القربى، ولهذا جاء التصوير القرآني غاية في الدقة في هذا السياق، قال تعالى:

- ﴿۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء: 36]

فالقريب قد يكون جارك (أي قريب مكانياً لك)، ولكنه قد لا يكون جارك.

وللتدليل على الفرق بين إفراد الضمير للذات الإلهية "أنا" واشتراك آخرون معه "نحن" نورد السياقات القرانية التالية:

لقد توجه الله سبحانه بالخطاب لموسى على نحو:

- ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ [النمل: 9]
- ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ [الشعراء: 10]

ولكن جاء الخطاب في حالة إبراهيم على نحو:

- ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥﴾ [الصافات: 104-105]

ج. وللمزيد من المقارنة بين حالة آدم وزوجه من جهة وقوم موسى عليهما السلام عندما خالفوا الأمر الرباني بالسكن والأكل مما شاءوا من جهة أخرى، فإننا نثير التساؤل الغريب التالي: ما الذي حصل بعد مخالفة ذلك الأمر الرباني؟ إنه الهبوط:

في حالة آدم:

- ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: 123]

في حالة قوم موسى:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [البقرة: 61]

لقد برزت فكرة الهبوط في الحالتين، ولا شك أن الهبوط في حالة قوم موسى هو تبديل المكان (من الأرض المقدسة إلى أرض مصر)، فما هو الهبوط في حالة آدم وزوجه؟ لقد زعمنا القول في مقالة سابقة لنا أن هبوط آدم كان انتقالًا من مكان على الأرض إلى مكان آخر على الأرض.

د. لقد نادى الله موسى " مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ":

- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: 30]

هـ. تكرر اللقاء الرباني لموسى في المكان نفسه:

- ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٥١﴾ [البقرة: 51]
- ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤٢﴾ [الأعراف: 142]

لاحظ عزيزي القارىء كيف جاء النص على نحو أَرْبَعِينَ لَيْلَةً في آية البقرة ولكنه جاء على صيغة ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ في آية الاعراف، إن حل هذه المسألة يتطلب التذكير بآية آخرى وردت في كتاب الله الا وهي:

- ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣﴾ [طه: 83]

إننا نعلم أن موسى تعجل للقاء ربه، فنقول أن موسى بناءً على ما جاء في آية الأعراف وصل المكان الذي واعده إياه ربه في الليلة الثلاثين وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً، فموسى هنا هو الفاعل لفعل الوعد ولكن الله كان قد وعده اللقاء في الليلة الاربعين، لذا جاء الخطاب في سورة الاعراف وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، لذا جاءت الصيغة في سورة البقرة وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فموسى هنا مفعول به لفعل الوعد.

للاستزادة حول هذا الموضوع يمكنكم قرآءة مقالتنا تحت عنوان: أين كانت جنة آدم؟

- ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۝٨٠﴾ [طه: 80]
- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٤٦﴾ [القصص: 46]
- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٥٩﴾ [البقرة: 59]
- ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾ [البقرة: 60]

وهنا نجد حصول الحياة الرغد، تبديل الكلام، حصول الظلم، حصول العقاب، طلب الطعام الذي هو أدني، الأمر الإلهي لهم بالهبوط.

نصل من النقاش السابق إلى النتيجة المفتراة التالية: إن قصة التحريم الأولى حصلت في مكان ما على الأرض وليس في جنة في السماء. وإن صح هذا الافتراض، فإننا بحاجة أن نفهم سبب التحريم، أي لماذا حرم الله بعض الأطعمة على عباده؟

للاستزادة حول هذا الموضوع يمكنكم قرآءة مقالتنا تحت عنوان: أين كانت جنة آدم؟

الظلم

لعلنا بحاجة أولاً أن نلفت الانتباه إلى الآية القرآنية التالية ليبين الربط بين الظلم وقضية التحريم في المأكولات، قال تعالى:

- ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: 160]

ولا ننسى كذلك مغزى ورود مثل هذه الآية الكريمة في سورة النساء التي تتحدث في جزء كبير منها عن النكاح وأسباب تحريمه (وهو ما سنتعرض له لاحقاً بحول الله وتوفيقه)، كما لا ننسى موضوع تحريم المأكولات كما ورد في سورة المائدة والربط العجيب بين الطعام والنكاح في قوله تعالى:

- ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة: 5]

أولاً، نحن نفهم من السياق القرآني أنّ حكمة الله قضت بأن لا يطرد الظالم من رحمته إن هو تاب واستغفر ربه ثم أناب، فآدم وزوجه ارتكبا الظلم الذي حذرهم الله منه، لكن الله لم يطردهما من رحمته مادام أنهما رجعا إلى ربهم واعترفا بذنبهما، قال تعالى:

- ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: 37]

وكانت تلك من سنن الله للخلق جميعاً، قال تعالى:

- ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النمل: 11]
- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: 135]
- ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة: 64]
- ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: 110]
- ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: 39]
- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: 6]

ثانياً، نحن نفهم كذلك أنّ الظلم (كما يرد في القرآن الكريم) يعني "إرتكاب المعصية بالرغم من العلم فيها"، فلا يسمى من يقع في المعصية ظالماً إلاّ إذا كان قد امتلك العلم فيها من قبل، قال تعالى:

- ﴿... وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ [البقرة: 145]

وهو كذلك الإعراض عن آيات الله بعد التذكير بها:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ٥٧﴾ [الكهف: 57]

وبهذا نفهم قوله تعالى:

- ﴿... لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٠﴾ [البقرة: 150]

فكيف سيكون للذين ظلموا حجة على الذين آمنوا؟ إنّ الجواب من هذا المنظور بسيط جداً، فأولئك الكافرون (لكونهم ظالمين) فهم على دراية وعلى درجة من العلم، ولكنهم آثروا كما فعل زعيمهم إبليس من قبل الوقوع في المعصية عن علم، فحصلوا بذلك على لقب "الظالمين" عن جدارة واستحقاق.

وكذلك نفهم كيف خاطب الله في كتابه الكريم نبيه عن علماء بني إسرائيل:

- ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾ [الشعراء: 197]

فـ لبني إسرائيل بنص القرآن الكريم علماء، ولكن هل مكّنهم هذا العلم من الهداية؟ الجواب: كلا، فهم لم يؤمنوا برسالة الله لغيرهم (كرسالة عيسى عليه السلام أو رسالة سيدنا محمد مثلاً) بالرغم من علمهم بصدق تلك الرسالات، وقد يتساءل البعض عن سبب ذلك، فنقول لا بد من التمييز بين الشخص العالم والشخص العاقل ولكن لب القول أنّ هولاء القوم لا يعقلون بالرغم من امتلاكهم العلم، ولهذا جاء على لسانهم يوم القيامة:

- ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ [الملك: 10]

فالعالم هو من تحصلت لديه المعلومة وخزّنها في مستودعه (دماغه الذي في رأسه) ولكنها لم تدخل مستقره (عقله: أي قلبه الذي في صدره)، (للتعرض لهذا الموضوع، انظر مقالتنا: جدلية القلب والدماغ) فصدق بهم قول الحق سبحانه:

- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ١٧٧﴾ [الأعراف: 176-177]

فآدم وقع في المعصية بالرغم من أنّ الله قد أودع فيه العلم من ذي قبل ونبّهه إلى خطر المعصية التي سيقع فيها، وموسى قد ظلم نفسه لأنّ الله كان قد أودع فيه العلم قبل الوقوع في المعصية:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: 14-16]

فالمطلوب من الإنسان ليس "عدم الوقوع في الظلم"، وإنما "عدم الإقرار به" و "الرجوع عنه بالتوبة" ليشمله الله بالغفران. فها هم الأنبياء أنفسهم يقعون في الظلم (أي الذنب بعد العلم)، ولكنهم لا يصرون عليه، بل يبادرون بالاعتراف بظلمهم فيتوجهوا إلى الله بالتوبة، فيغفر الله لهم لأنه "هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ". وليس أدل على ذلك من دعوة ذي النون الشهيرة:

- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: 87]

وبهذا نصل إلى استنتاجات مهمة، نذكر منها:

أولاً: أنّ المعصية لم تتأتي ولن تأتي إلا بالوسوسة، فهي سبب التغيير، وهذا بالضبط ما حصل مع آدم، وهو ما يحصل مع جميع البشر حتى اليوم، فالإنسان بطبعه مجبول على الفطرة (وهي الهداية)، ولا تأتي المعصية إلاّ بعد الوسوسة، فإذا ما أراد شخص ما أنْ يرتكب معصية لا تتم تلك المعصية إلا بعد ذلك الحوار الداخلي، فيبدأ بسرد الأسباب الموجبة والأسباب النافية للوقوع في المعصية، وإذا ما استجاب الإنسان لدعوة الشيطان ونفسه الأمّارة بالسوء وقع عندها بالمعصية:

- ﴿... وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم: 22]

ثانياً: أنّ هذه الوسوسة تؤدي إلى التغيير، وأهمها تغيير المفردات والمعاني، فيصبح البذيء والرديء حسنا:

- ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣﴾ [النحل: 63]

لتنقلب بعدها الهداية إلى معصية، والقرآن الكريم غاية في الروعة والدقة في هذا الجانب، فمن خلال استعراض بعض الآيات القرآنية يتضح أنه كلما حصل تبديل للكلام، حصلت المعصية واستحق الظالمون حينئذ العقاب الرباني، قال تعالى:

- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٥٩﴾ [البقرة: 59]
- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾ [الأعراف: 162]
- ﴿۞أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [البقرة: 75]

وكذلك فإنّ الذي يكذب عن علم فهو من الظالمين:

- ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾ [الأنعام: 144]
- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: 18]
- ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام: 33]
- ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾ [الأنعام: 68]
- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧﴾ [الصف: 7]
- ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥﴾ [الجمعة: 5]

ومن آثر اتباع هواه، فهو إذاً من الظالمين:

- ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾ [القصص: 50]

ومن دعا من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره، فهو من الظالمين:

- ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ [يونس: 106]

وبهذا السرد يكون قوم فرعون قد ضلّوا عن علم، ولكنهم آثروا اتباع الهوى:

- ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ١١﴾ [الشعراء: 10-11]

وكذلك ترك قوم موسى الهداية عن علم يوم أن أضلهم السامري:

- ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ [الأعراف: 150]

ودخل النار من اتبع الشيطان عن علم:

- ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم: 22]

وهذا القرآن لن يكون شفاء ورحمة ولن يزيد من آثر عدم اتباع نهجه الاّ خسارا:

- ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ [الإسراء: 82]

فالله لا يظلم أحدا، فهو يرسل العلم لهم، ولكنهم إن آثروا تركه كانوا هم الظالمين لأنفسهم:

- ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦﴾ [الزخرف: 76]

وأخيراً لنلتفت إلى آية كريمة تعتبر من سنن الله الكونية:

- ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [الأنفال: 25]

فالظلم إن وقع من مجموعة محددة، يقع العقاب على المجموعة بأكملها (باستثناء الذين ينهون عن السوء، أما من أقر بالظلم حتى وإن لم يفعله بنفسه، فهو من المجموعة التي سيقع عليها العقاب الرباني):

- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٥٩﴾ [البقرة: 59]

الظلم وعلاقته بتحريم لحم الخنزير

والآن لنربط هذه الفكرة بقصة التحريم وهو الأمر الذي جهدنا للوصول إليه، قال تعالى:

- ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: 160]

فالتحريم (تحريم الطيبات من الرزق) كان بسبب الظلم الذي ارتكبته مجموعة معينة، فوقع العقاب على الجميع، وتتكرر الفكرة في مكان آخر من كتاب الله:

- ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [النحل: 118]

افتراء من عند أنفسنا: نحن نزعم الظن أن الله سبحانه طلب من بني إسرائيل شيئاً فتحصل لهم العلم به، ولكنهم لمّا آثروا مخالفة أمر ربهم عن علم، جاءهم العقاب الرباني المباشر – نحن نفتري القول- على شكل التحريم (تحريم الطيبات من الرزق)، فما هو ذلك الشيء – نحن نتساءل- الذي كان سبباً في تحريم بعض الطيبات على بني إسرائيل بسبب ظلمهم لأنفسهم، ولنتدبر المشهد كما يرد في سورة النساء:

- ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم
مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ
اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ
عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ
مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا
لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ
لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: 154-161]

إنّ المدقق في هذه الآيات الكريمات يجد أنّ الله قد أخذ من بني إسرائيل ميثاقاً بأن لا يعدوا في السبت، ولكنهم نقضوا ذلك الميثاق، وقصة الذين اعتدوا في السبت واضحة تماماً في السياق القرآني، قال تعالى:

- ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ
فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ
الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ

قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ
لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ
ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ
كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: 160-163]

فها هم بنو إسرائيل يعيشون في جنة كتلك الحياة التي حصلت لآدم وزوجه في الجنة:

- ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ
فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ
ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾
[الأعراف: 160]

ولكنّهم ظلموا أنفسهم بتبديل القول الإلهي لهم:

- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف: 162]

وهنا تبرز قصة الذين اعتدوا في السبت:

- ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ
سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: 163]

ويأتي العقاب الرباني على هذا النحو:

- ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ
﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: 164-166]

وترتبط صورة القردة هذه بصورة أخرى وهي صورة الخنازير:

- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: 59-60]

فالخطاب - بلا شك- موجه لبني إسرائيل، وفيه يذكّر الله بني إسرائيل بحادثة المسخ الذي حصل لهم، فغضب الله (الرجز الذي نزل عليهم) كان على شاكلة مسخهم قردة وخنازير، ولمّا كان الخنزير أصلاً من سلالة الحيوانات، وكان الناس على عادة أكل لحوم الحيوانات، بدأت منذ تلك اللحظة – نحن نزعم القول- قصة تحريم أكل لحم الخنزير، ولربما وصل القارىء الكريم إلى ما نبغي الوصول إليه وهو سبب تحريم أكل لحم الخنزير على وجه الخصوص.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نزعم القول أن الناس لم يكونوا على عادة أكل لحم القردة، وبالتالي فهو لم يكن محور خلاف بين الناس، فلربما يبادرنا البعض بالقول: لماذا لا يذكر القرآن الكريم حرمة أكل بعض القوارض كالفئران والجرذان، أو بعض الحيوانات الأليفة كالكلاب والقطط، وهكذا؟ فنرد بالقول أن التحريم جاء في الأصل للأطعمة التي كان الناس على عادة أكلها، ولهذا جاءت الروعة القرآنية لتصور هذه الحقيقة على النحو التالي:

- ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: 145]

فالخلاف حصل على الأصناف التي كانت تعد من الأطعمة وعلى رأسها الخلاف الذي حصل على وجاهة تحريم أكل لحم الخنزير، فنقول أنّ النص القرآني لا يذكر أنّ لحم الخنزير محرم بسبب عوامل تتعلق بالرغبة أو القيمة الغذائية أو المضار الصحية التي تترتب على أكله (وإن وجدت) أو حتى العوامل الاجتماعية أو الاقتصادية أو النفسية، ولكن قصة الخنزير في القرآن الكريم واضحة جلية، وهي على النحو التالي:

- ﴿۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: 93]

فالله يثبت في كتابه أن ما كان يؤكل (طعاماً) كان حلاً لبني إسرائيل، ولا شك أن لحم الخنزير كان إذاً من الأطعمة بدليل أن الناس حتى يومنا هذا يأكلوه، ولكن لما حصلت حادثة المسخ:

- ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: 60]

إختلطت دماء بني إسرائيل (الذين اعتدوا منهم في السبت فقط) بدماء الخنازير والقردة، فأصبح من الصعب التفريق بينهم، فحصل التحريم لذلك النوع من الطعام على وجه الخصوص، لعدم القدرة على التميز بين ما هو من أصل حيواني وما هو من أصل بشري، وانتقل هذا التحريم إلى الشرائع الأخرى كالمسيحية والإسلام. ولما كانت القردة ليست أصلاً من الأطعمة البشرية لم يكن هناك خلاف عليها، ولم يكن هناك داع للتأكيد على حرمتها في مواضع الحديث عن الطعام، ولكن برزت الحاجة إلى تأكيد حرمة لحم الخنزير في أكثر من موضع في كتاب الله، فكلما ذكرت الأطعمة وردت في السياق نفسه حرمت لحم الخنزير، ولو لم يكن لحم الخنزير من الأطعمة السائدة (كما هو الحال في حالة القردة) لما كان هناك حاجة لتأكيد ذلك التحريم.

نستنتج إذاً أن لحم الخنزير كان من الطعام الذي كان يؤكل قبل حادثة المسخ بدليل أنّ كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل، وبدليل أن الناس ما انفكوا عن عادة الأكل هذه حتى يومنا هذا، وما حصل التحريم له إلاّ بعد تلك الحادثة، ولا أظن أن الإنسان يأكل لحم حيوان إن علم أنّ ذلك الحيوان له أصول بشرية، وهنا نورد دليلين على صحة ما نزعم:

أولا، أما الدليل العلمي (الذي لا نثق به كثيراً لاثبات صحة ما ندعي) يتمثل بما يلي: تجتاح العالم أمراض الحيوانات الكثيرة، كانفلونزا الطيور وانفلونزا الخنازير وجنون البقر، الخ، ففي حين أن أمراض الحيوانات بشكل عام تنتقل فقط من حيوان إلى إنسان، فاذا أصبت أنا (كانسان) مثلاً بانفلونزا الطيور أو جنون البقر فلا أنقل المرض لك، فلا بد من وجود الواسطة وهي الحيوان نفسه، فهي أمراض بمجملها تنتقل من حيوان إلى إنسان، ولكن لمّا ظهر ما يسمى "بأنفلونزا الخنازير" على وجه الخصوص دب الرعب الأكبر في العالم، لأنّ الخبراء يحذرون من خطورة هذا المرض التي تتمثل بانتقال المرض من الإنسان المصاب إلى إنسان آخر دون وجود الوساطة وهي الحيوان نفسه، فهذا المرض على وجه الخصوص ينتقل من الحيوان إلى الإنسان وينتقل كذلك من الإنسان إلى الإنسان، وسؤالنا هو: لماذا أنفلونزا الخنازير على وجه الخصوص تنتقل من الإنسان إلى الإنسان؟! (ثم نحن ندعو القارىء الكريم إلى متابعة ابحاث نقل الاعضاء، وكيف أصبح من الممكن نقل أعضاء من القردة والخنازير على وجه الخصوص إلى الجسم البشري).

رأينا: اختلاط الدم البشري بدم الخنازير، فالله يقول في سورة المائدة:

- ﴿...وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾ [المائدة: 60]

وهنا لا بد من التعريج على جزئية تداولها بعض أهل الفكر الاسلامي في هذا الشأن، وهي اعتقادهم بأن المسخ كان معنوياً، فنرد على مثل هذا الإدعاء بالإيمان المطلق بأن كلام الله يؤخذ على الحقيقة وليس على المجاز، للتفصيل حول هذا الموضوع انظر مقالتنا تحت عنوان جدلية الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم.

فالله سبحانه عندما يخبرنا بشيء فهو يخبرنا بحقيقة ما حصل فعلاً، ولا ننسى كذلك أن الله يستخدم المفردات بمعانيها الحقيقية، ولهذا قال في هذا السياق:

- ... وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ...

ولنلتفت إلى معنى مفردة "جعل"، فلماذا استخدم الله هذه اللفظة في هذا السياق؟ فلعلنا بحاجة إلى أن تستقصي بعض السياقات القرانية التي ترد فيها هذه المفردة:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]
- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة: 20]
- ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة: 97]
- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: 1]
- ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: 96]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: 97]
- ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: 10]
- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف: 15]
- ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: 55]
- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف: 62]
- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يوسف: 70]
- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 100]
- ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر: 16]

- ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: 78]
- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾ [الكهف: 1]
- ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾ [مريم: 24]

وبعد هذا الإستعراض الطويل، يأتي تساؤلنا على النحو التالي: هل حصلت تلك الأمور على الحقيقة أم على المجاز؟ وإن كان الجواب بلا شك على الحقيقة، فلِمَ نتقبل في جميع هذه الحالات حصولها حقيقة ولا يتقبل بعضنا حصول المسخ على الحقيقة، والله سبحانه يقول بكلمات واضحة لا تقبل التبديل:

- ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠﴾ [المائدة: 60]

وإذا كان العقاب (بالمسخ) على من اعتدى من بني اسرائيل معنوياً، فلم يكون على غيرهم حقيقياً:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾ [هود: 82]
- ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾ [الحجر: 74]

فلِمَ نقبل أن يكون العقاب الإلهي (على قوم لوط مثلاً) حقيقياً بينما على الذين اعتدوا في السبت مجازياً؟ فهل نتحرّج أن نقول أنّ القردة والخنازير من سلالة الذين اعتدوا في السبت من بني اسرائيل؟!

والأهم من ذلك أنه لو كانت "جعل" تحمل المعنى المجازي كما ظن البعض، لما كان للكفار والمشركين مشكلة تستحق الوقوف عندها أصلاً:

- ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦﴾ [الأنعام: 136]
- ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾ [الأعراف: 138]
- ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ [الأعراف: 190]
- ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠﴾ [إبراهيم: 30]
- ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ [الحجر: 96]
- ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧﴾ [النحل: 57]

فهولاء ستكون حجتهم يومئذ القول إنما كان ذلك على سبيل المجاز وليس على الحقيقة، فلا أظن أنهم سيترددون حينئذ أن يقولوا: نحن لم نطلب من موسى أن يجعل لنا إلهاً حقيقياً مثل أصنام القوم الذين مروا بهم، ونحن لم نجعل لله أنداداً وشركاء والهة أخرى وبنات على الحقيقة. إننا نفهم أن البشر يستخدموا المجازات لعجزهم في توصيل الفكرة بالكلمات الحقيقية، ولكن لما كان الإله قادراً على توصيل الفكرة بالكلمات الحقيقية فهو ليس بحاجة إلى المجازات. ولا أظن أن القرآن الكريم يحتوى على مجازات لانه كلام الله على الحقيقة.

فلعلنا إذاً بحاجة أن نستجلي معنى "جعل" كما ترد في السياقات القرانية، وفي هذا المقام نقول: إننا نفهم أن "جعل" تعني التغيير من حالة إلى حالة:

- ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾ [الكهف: 96]
- ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾ [الكهف: 98]
- ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠﴾ [مريم: 30]
- ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩﴾ [مريم: 49]
- ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩﴾ [طه: 29]
- ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ٥٨﴾ [الأنبياء: 57-58]
- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣﴾ [المؤمنون: 12-13]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٣﴾ [النور: 43]
- ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٥٣﴾ [الفرقان: 53]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ٥٤﴾ [الفرقان: 54]
- ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥﴾ [القصص: 4-5]
- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 27]
- ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨﴾ [السجدة: 8]

- ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤﴾ [يس: 33-34]

لاحظ عزيزي القارىء فكرة التحول التي حصلت على الأرض، فلم تكن الأرض أصلاً كما هي عليه الآن بدليل الفعل "جعل" الذي يتطلب التحول من حالة إلى حالة.

- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٤٤﴾ [فصلت: 44]
- ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: 3]

لاحظ عزيزي القارىء فكرة التحول من حالة إلى حالة هنا، فالقرآن الكريم إذاً لم يكن أصلاً عربياً وإنما جعل عربيا، أي لقد تم تحويله من صيغته (حالته) الاولى غير العربية إلى صيغة أخرى (حالته) وهي العربية، وهذا ما نسميه تفصيل الكتاب، انظر مقالتنا تحت عنوان لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه خاصة الجزء الذي يتحدث عن مستويات فهم النص القرآني الثلاثة: التفسير والتأويل والتفصيل.

- ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق: 7]
- ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾ [المزمل: 17]
- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾ [الفيل: 1-5]

وبالتالي لم تكن الأرض مثلاً مهداً والسماء بناءً (أو سقفاً) قبل أن تجعل:

- ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: 22]
- ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾ [طه: 53]
- ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١﴾ [الأنبياء: 31]
- ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾ [الأنبياء: 32]

ثانياً، أما الدليل العقائدي وهو الأهم في رأينا لإثبات صحة ما نزعم فيتمثل في أنّ لحم الخنزير محرم في الشريعة اليهودية والإسلامية تحريماً قطعياً، فالمؤمنون بهاتين الشريعتين لا يأكلوا لحم الخنزير على وجه

الخصوص، أما في المسيحية فهو بلا شك محرم تحريماً قطعياً إلا أن أتباع المسيحية يأكلون لحم الخنزير بحجة أن عيسى ابن مريم قد أحله لهم، ولكننا نقول إن النص القرآني يكذب قصتهم تلك في قوله تعالى:

- ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: 50]

وهنا نذكر أن عيسى بن مريم عليه السلام قد أحل لبني إسرائيل بعض الذي حرم عليهم وليس كله، ولا شك أن ما أحله لهم هو الطيبات وليس الخبائث:

- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الجاثية: 16]
- ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: 160]

وقد ذكرنا سابقاً أن التحريم كان في بني إسرائيل سارياً لاطعمة من الطيبات بسبب تحريم إسرائيل تلك الأطعمة على نفسه (انظر مقالتنا تحت عنوان "لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه" للتعرف على رأينا بمن هو إسرائيل هذا).

- ﴿۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: 93]

فالذي أحله عيسى لهم إنما هي بعض الطيبات و ليس لحم الخنزير وقد أصبح من الخبائث:

- ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: 145]

فالجملة الاسمية " فَإِنَّهُ رِجْسٌ" هي صفة ملازمة للحم الخنزير، وليست جملة معطوفة على المحرمات التي تم ذكرها في الآية الكريمة، لأنها لو كانت كذلك، لجاءت منصوبة كما الحال بالنسبة لمفردة "فِسْقًا" التي تليها مباشرة.

إن خلاصة القول هي أن هذه الشرائع السماوية الثلاثة (اليهودية والمسيحية والاسلام) جميعها تحرم أكل لحم الخنزير على وجه الخصوص، بينما لا يوجد تحريم للحم الخنزير عند الشعوب الأخرى، وبذلك جاء الخطاب القرآني لهذه الأمة على هذا النحو:

- ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ ... ﴿٥﴾﴾ [المائدة: 5]

أما طعام غير أهل الكتاب فليس حلاً لنا على إطلاقة، فلا بد من التخيير، وسؤالنا هو لماذا يثبت القرآن الكريم تحريم أكل لحم الخنزير في هذه الشرائع الثلاث على وجه التحديد؟ الجواب هو – كما نظن- أنّ لحم الخنزير (بعد أن كان من الأطعمة التي تؤكل) اختلط به الدم البشري يوم حادثة المسخ الشهيرة، فحرمته هذه الديانات الثلاث على وجه التحديد فتوقف أتباع الشرائع الثلاث عن أكله ، واستمرت الشعوب الأخرى في سننها في أكل لحم الخنزير. وعندما نسقط محرمات الأطعمة على خارطة العالم القديم بعد قليل سيتبين لنا الجواب على السؤال التالي: لماذا لا تحرم شعوب الشرق الأقصى لحم الخنزير على الاطلاق؟ ولكن القارىء مدعو هنا لمراجعة مقالتنا تحت عنوان "سفينة نوح ونظرية تكون القارات" ليتعرف على توزيع الخارطة الدينية (واقصد بالذات رسالة ذوي العزم من الرسل) على خارطة العالم القديم. وتتلخص الفكرة أن الخنزير لم يكن محرماً في شرائع الانبياء الذين سبقوا موسى عليه السلام.

ثالثاً، يأتي دليلنا الثالث على اعتقادنا بأن سبب تحريم لحم الخنزير على أساس اختلاط دم الخنزير بدماء الذين اعتدوا في السبت من بني إسرائيل يأتي من ما نستنبطه من الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥﴾ [المائدة: 5]

وقد يتساءل البعض: وما علاقة هذه الاية بتحريم أكل لحم الخنزير؟ فنرد بالقول: هنا تتداخل فكرة الطيبات من الأطعمة مع فكرة النكاح في هذه الآية الكريمة، ولا شك أن القارىء العادي للقرآن الكريم يلحظ أن الله استخدم لفظ الطيبات للحديث عن الاطعمة وللحديث عن النكاح، قال تعالى عند الحديث عن الطعام:

- ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: 57]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة: 172]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ [البقرة: 267]
- ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ١٦٠﴾ [النساء: 160]
- ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤﴾ [المائدة: 4]

- ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف: 32]
- ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١٦٠﴾ [الأعراف: 160]
- ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِىۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ٨١﴾ [طه: 81]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًاۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٥١﴾ [المؤمنون: 51]

ولا تخفى كذلك الآيات الكثيرة التي تتحدث عن أن الله رزقنا من الطيبات دون تحديدها:

- ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٢٦﴾ [الأنفال: 26]
- ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٩٣﴾ [يونس: 93]
- ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ [الإسراء: 70]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٦٤﴾ [غافر: 64]
- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الجاثية: 16]

وقال عند الحديث عن النكاح:

- ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٢٦﴾ [النور: 26]

وجاء في معرض اختلاط الطيبات من الرزق مع النكاح:

- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ٧٢﴾ [النحل: 72]

- ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾ [الأحقاف: 20]

ومما يدلنا على هذا الاختلاط هو قوله تعالى "وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا"، وعند الحديث عن هذا الاستمتاع نجد الله سبحانه يقول في موطن آخر:

- ﴿۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٢٤﴾ [النساء: 24]

فهنا نجد الحديث عن الاستمتاع متعلق بالنساء (النكاح)، فترتبط بذلك فكرة الاستمتاع بالطيبات من الأكل مع الاستمتاع بالطيبات بالنكاح، وترتبط فكرة الطعام والنكاح كذلك بفكرة التحليل والتحريم:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧﴾ [المائدة: 87]
- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف: 157]

وهنا نصل إلى السؤال الذي ننوي إثارته وهو: ما هي ماهية التحريم في النكاح؟ لماذا حرمت بعض العلاقات الجنسية كتلك بين الأب والأخ والعم والخال مع قرائنهم من النساء: قال تعالى في سورة النساء:

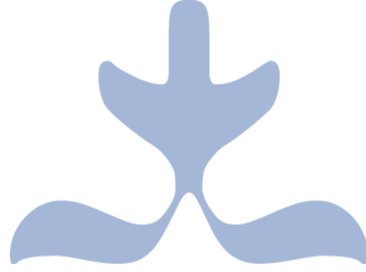
- ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣﴾ [النساء: 23]

ويظهر التطابق العجيب في سرد التحريم من الأطعمة في سورة المائدة في قوله تعالى:

- ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾ [المائدة: 3]

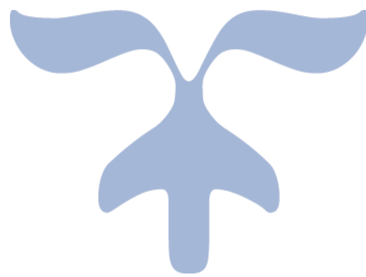
فلعلنا نعلم جميعاً أن من أهم أسباب التحريم في النساء (النكاح) هو صلة القرابة، أليس كذلك؟ فالأم والبنت والأخت والعمة والخالة تجري في عروقهم نفس الدماء. فأنت لا تقدم على نكاح الأم والأخت والبنت (وان كن ملكات جمال) وتقبل نكاح غيرهن حتى وإن كن غير جميلات، أليس كذلك؟ ولكن ما علاقة ذلك بسبب التحريم في المائدة (الطعام)؟

لعلي أجزم أن الصورة نفسها تتكرر في قصة تحريم لحم الخنزير: إنها صلة القرابة، فالخنزير له صلة قرابة مع البشر، لذا تعافه النفس البشرية، وربما تتقبل أكل لحوم الحيوانات التي ربما هي أقل منه إثارةً للشهية كالبقر والخيل وحتى الجراد والضب، ولا تتقبل أكل لحم الخنزير وإن كان – كما يظن الكثيرون وهم على ما أعتقد محقون- ليس أقل إثارة للشهية من لحم البقر أو الإبل، الخ. **والله أعلم.**



بداية الخلق

الجزء السابع



الجزء السابع: من تطبيقات نظريات تحليل الخطاب (2): ما يؤكل وما لا يؤكل

ملخّص

تناقش الدراسة الحالية مسألة تحريم باقي الأطعمة في ضوء ما تحصل لنا من استنباطات في المقالة السابقة التي تعرضت لـ سبب تحريم لحم الخنزير على وجه التحديد، فلقد دلّت الإشارات النصية في القرآن الكريم (كما نفهمها نحن) على أن تحريم لحم الخنزير جاء بشكل قاطع في الديانات السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام بعد حادثة المسخ التي تعرض لها الذين اعتدوا من بني إسرائيل في السبت، فاختلط بعد ذلك المسخ الدم البشري بالدم الحيواني، وانتقل بسب ذلك المسخ رجس من رجس الكافرين إلى ذلك النوع من الحيوانات. وقد أثار طرحنا هذا سؤالاً يتعلق بوجاهة عدم الأكل من الأنواع الأخرى من الحيوانات كالحمير والبغال وغيرها، وبعد متابعة الإشارات النصية في القرآن الكريم وجدنا لزاماً التفريق بين نوعين من الحيوانات وهي الأنعام والدواب، وقد تبين أن الأطعمة الحيوانية التي لا يُختَلف في أكل لحومها هي من فصيلة الأنعام، والدراسة الحالية تناقش بداية الفرق بين هذين الصنفين من الحيوانات كما تجليها السياقات القرآنية، ثم تنتقل لتحاول التمييز بين الأنعام مع فصيلة أخرى وهي النعم، وأخيراً تتعرض الدراسة لمشروعية أكل لحوم الطيور.

تحريم لحم الخنزير وباقي الأطعمة

كيف ولماذا حرمت بقية الأطعمة في ضوء النظرة الجديدة في تحريم لحم الخنزير؟

ننطلق من المبدأ الذي ورد في كتاب الله بخصوص ما يؤكل وما لا يؤكل كما ورد في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ١١٩﴾ [الأنعام: 119]

فهذه الآية الكريمة تؤكد على المبدأ التالي: أن الله قد فصّل ما لا يؤكل ولكنّه لم يفصّل ما اضطررنا له، فعند الضرورة يمكن الأكل من أي شيء وإن لم يذكر مفصلاً في كتاب الله. ولكن عند الحديث عمّا لا يؤكل فهو مفصل في كتاب الله، ولنرقب الدقة القرآنية في قوله تعالى:

- ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ

فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ [المائدة: 3]

فتلك الأطعمة المحرمة جميعها هي بنص القرآن الكريم "فسق". ويرد في سياق قرآني آخر السبب الآخر لتحريم بعض الأطعمة:

- ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ [الأنعام: 145]

فتلك الأطعمة جميعها هي بنص القرآن الكريم رجس أو فسق، ولكن المدقق في سياق الآية الكريمة (الأنعام 145) يجد غرابة في التركيب في قوله تعالى فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا ، فكلمة " فِسْقًا " - لا شك عندنا- ليست معطوفة على فسق وذلك بدليل اختلاف الحركة الإعرابية، ففي حين أن (فِسْقًا) في الآية الكريمة منصوبة بتنوين الفتح (أَوْ فِسْقًا) جاءت مفردة (رِجْسٌ) في السياق القرآني نفسه مرفوعة بتنوين الضم فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ ، فلا يمكن أن تكون فِسْقًا معطوف و رِجْسٌ معطوف عليه، ونحن نفهم الآية الكريمة على النحو التالي:

- قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ

فتكون المحرمات جميعها معطوفة على بعضها بأداة العطف "أو"، وأداة الإعراب هي الفتح كونها جميعاً خبر "يكون"، ولكن أين ذهبت عبارة (فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ)؟ نقول إن تلك الجملة هي جملة اسمية تصف فقط لحم الخنزير، فلحم الخنزير على وجه الخصوص هو الرجس (أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ).

نستنتج إذاً أنّ تلك الأطعمة قد جرى تحريمها لسببين اثنين وهما الفسق والرجس، ونحن بحاجة لتتبع السياقات القرآنية التي تتحدث عن الفسق والرجس كحلقات ذهنية يجب ملاحقتها لتتبين ماهية التحريم.

الرجس

من أين جاء الرجس إلى الخنازير على وجه التحديد؟ وبكلمات أخرى إذا كان الخنزير في الأصل من المأكولات كما زعمنا في الجزء السابق من هذه المقالة، فكيف أصبح بعد ذلك رجس؟ لنمعن الآن التفكير في قوله تعالى:

- ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [التوبة: 95]
- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: 125]

إنّ هاتين الآيتين الكريمتين تؤكدان أن الرجس جاء من أصل بشري، فالذين في قلوبهم مرض زادتهم آيات الله رجساً إلى رجسهم الذي هو أصلاً جزء من طبيعتهم. فالكافرون بطبيعتهم رجس وذلك بنص القرآن الكريم: إِنَّهُمْ رِجْسٌ ولا يحتاج ذلك إلى تأويل، ولهذا عندما مسخ الله الذين اعتدوا من بني إسرائيل قردة وخنازير انتقل – نحن نفتري القول- ذلك الرجس إلى فصيلة الخنازير، فأصبحت رجساً بدليل قوله تعالى:

- أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ

لتتأكد بذلك صلة القرابة بين الظالمين (الذين في قلوبهم مرض) من جهة والخنازير من جهة أخرى، ولهذا فإن الظالمين الذين هم على دراية بالعلم ولكنهم يؤثرون إتباع خطوات الشيطان يصيبهم ذلك الرجس:

- ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: 100]

وتكون مهمة الإنسان هي التخلص من ذلك الرجس بتوفيق الله وإرادته مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: 33]

الفسق

لقد حصلت قصة الفسق الأولى عندما رفض إبليس الأمر الإلهي بالسجود لآدم، قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: 50]

لقد حصل الفسق من الشيطان عندما رفض السجود، فالفسق هو إذاً عدم الانصياع لأمر الله، وتتكرر مثل هذه الحادثة على الأرض، عندما رفضت مجموعة من بني إسرائيل الانصياع لأمر خالقها بأن لا يعدوا في السبت:

- ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: 163]
- ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: 165]

فكان عاقبة ذلك الفسق هو المسخ:

- ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: 166]
- ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: 60]

فأصبحت تلك من سنن الله الكونية: عندما يحصل الفسق من قبل الخلق يقع العقاب الرباني على الفاسقين:

- ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: 16]
- ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: 165]

وكانت النتيجة الحتمية أن الذين فسقوا لا يؤمنون:

- ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس: 33]

ومن هذا المنطلق فإننا نصل إلى النتيجة التالي والتي هي بلا شك مفتراة من عند أنفسنا: إنّ الأطعمة التي هي فسق تنتمي إلى مجموعة الذين لا يؤمنون (أي حزب الشيطان).

وربما يبادرنا البعض بالقول: وأين الدليل على ذلك؟ فنرد بالقول لنقرأ معاً قوله تعالى:

- ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأنعام: 118]
- ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام: 119]
- ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام: 120]
- ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: 121]

إن أساس تناول الطعام هو ذكر اسم الله عليه، فالأطعمة التي لا يذكر اسم الله عليها تكون فسقاً مصداقاً لقوله تعالى: وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ، ولا يكون الشيء فسقاً إلا إذا تدخل به الشيطان، فارتبط الفسق من الطعام بالشياطين، فالميتة والدم والمنخنقة والموقوذة والنطيحة والمتردية وما أكل السبع وما ذبح على النصب جميعها لم يذكر اسم الله عليها، فتنتهز الشياطين الفرصة لدخولها، فتصبح بذلك فسقاً. ولهذا جاء التحذير لنا من ربنا أن لا نتبع خطوات الشيطان:

- ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام: 142]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة: 168]
- ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: 169]

خطوات الشيطان: الزنا (الفحشاء والمنكر)

- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: 21]

وربما نحن بحاجة هنا أن نفهم كيف تدخلها الشياطين. قال تعالى في محكم التنزيل عن سبب رفض إبليس الأمر الإلهي بالسجود لآدم:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: 50]

فإبليس وذريته (وليس مجمل الجن) فسقوا عن أمر الله، فتكون النتيجة في الحياة الدنيا على النحو التالي:

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام: 49]

وتكون النتيجة في الآخرة على هذا النحو:

- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: 20]

فالفسق إذاً يذهب الطيبات، فالله سبحانه أحل لنا الطيبات من الرزق:

- ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: 32]

وحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن:

- ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: 33]

وكانت إحدى مهمات الرسول هي أن يحل لنا الطيبات وأن يحرم علينا الخبائث:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: 157]

قد يبدو زعمنا أن الشياطين تنتهز الفرصة لتدخل تلك الأطعمة التي لم يذكر اسم الله عليها من باب الغرابة في القول، ولكننا نود أن نلفت الانتباه إلى تساؤل أكثر غرابة قلما يلتفت إليها الكثيرون، سؤال يحتاج إلى توضيح يتحصل من المشهد التالي: تخيل أنك قمت بقطع شجرة في طرف بستانك، وفي الطرف الآخر من البستان قمت بإلقاء جثة أحد حيوانات مزرعتك التي نفقت، مما لاشك فيه أن الشجرة المقطوعة والجثة الهامدة ستتعرضان لعوامل التحلل، أليس كذلك؟ ولكن الغرابة في المشهد هو: لم لا تصدر عن الشجرة المقطوعة رائحة يتأذى منها المارّة، بل على العكس فقد تفوح منها رائحة عطرة زكية بالرغم من تعرضها لعوامل التحلل؟ وفي المقابل فإن الرائحة التي تصدر عن الجثة المتحللة لا تطاق، والسؤال المشروع هو: لم ينتج عن عملية تحلل النباتات روائح لا تؤذي الناس بينما يصدر عن تحلل جثث الحيوانات روائح كريهة؟ إن طرحنا هذا يقدم التعليل التالي: إن هذه الأطعمة التي دخلتها الشياطين قد أصبحت من الخبائث فصدرت عنها تلك الروائح التي تؤذي الناس.

الأنعام

وهنا نقف عند السؤال الكبير التالي: إذا كان ذلك هو سبب تحريم لحم الخنزير، فلماذا لا نأكل لحم الحمير مثلاً أو لحم الكلاب والقطط؟ فهل اختلطت دماء هؤلاء بدماء الذين اعتدوا في ---- من بني ---- مثلاً؟ أي هل ينطبق المنطق نفسه على هذه المخلوقات؟

لو تدبرنا السياقات القرآنية ووقفنا عند اللفظ القرآني كما يجب أن نقف، لوجدنا السبب الذي من أجله لا نأكل لحوم هذه الحيوانات. ولنبدأ تصورنا لسبب التحريم منطلقين من الآيات القرآنية الكريمة التالية:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [فاطر: 27-28]

دعنا نجلب الانتباه إلى بداية الآية (28) في قوله تعالى: " وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ"، فالله سبحانه يتحدث عن ثلاث مجموعات: الناس والدواب والأنعام، أليس كذلك؟ وإذا كنا جميعاً نتفق على أن الناس (المجموعة الأولى) تختلف عن المجموعتين الأخريين، إلاّ أن القليل منّا ربما يميزون بين المجموعة الثانية (الدواب) والثالثة (الأنعام)، ولكنني أميل إلى الاعتقاد أن هذه تصنيفات ربانية يجب أن تؤخذ على محمل الجد، وهي ليست كما جرت عليه ألسنة العامة شيئاً واحدا بتسميات مختلفة، إننا ننشد القول أنّ الدواب دواب وأن الأنعام أنعام، ولا يمكن أن تكون الواحدة هي الأخرى، وكفى.

ولكن ما دخل ذلك بموضوع التحريم؟ إننا نظن أن السياقات القرآنية التي سنستقصيها تؤيد الاستنتاج الكبير التالي:

الدواب هي الحيوانات التي لا تُؤكل بينما الأنعام هي فقط التي ذلّلها الله لنا لنأكل منها. وهذا ما سنبينه في الحال. فنحن لا نأكل الكلاب لأنها من الدواب، ولكننا نأكل الإبل لأنها من الأنعام. وهذا هو الافتراض الذي سنتابعه في الجزء القادم من المقالة.

ما يؤكل وما لا يوكل من لحوم الحيوانات

تتجلى الدقة القرآنية في هذا الموضوع على النحو التالي: عندما يتحدث النص القرآني عن الأكل من الطعام الحيواني ترد فقط لفظة الأنعام، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ [المائدة: 1]
- ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝١٣٨ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝١٣٩﴾ [الأنعام: 138-139]
- ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٤٢﴾ [الأنعام: 142]
- ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ [النحل: 5]

- ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه: 54]
- ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج: 28]
- ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج: 30]
- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون: 21]
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس: 71-72]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [غافر: 79]

أما عند الحديث عن الدواب، قال تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: 22]
- ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: 55]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: 18]
- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: 28]
- ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: 164]
- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: 38]
- ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: 6]
- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل: 49]

- ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١﴾ [النحل: 61]
- ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾ [النور: 45]
- ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ٨٢﴾ [النمل: 82]
- ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾ [العنكبوت: 60]
- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠﴾ [لقمان: 10]
- ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ: 14]
- ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ٤٥﴾ [فاطر: 45]
- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ٢٩﴾ [الشورى: 29]
- ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤﴾ [الجاثية: 4]

والآن دعنا بعد استعراض سياقات لفظة دابة (واشتقاقاتها) في القرآن الكريم أن نطرح التساؤل التالي: هل ترد لفظة الدواب (ولو مرة واحدة) عند الحديث عن الطعام؟

الجواب: كلا، فهل هذا إذاً من قبيل المصادفة؟

رأينا: ربما نستطيع أن نقدم الاستنباط التالي: إذا جاء الحديث عن الطعام ترد لفظة الأنعام ولا ترد لفظة الدواب إطلاقاً، وربما لهذا جاءت الحقيقة المذهلة الأولى بخصوص الطعام في الآية الأولى في سورة المائدة على النحو التالي:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾ [المائدة: 1]

وهو أمر ربما غفل عنه علماؤنا الأجلاء لقرون من الزمن، فأوقعوا العامة في إشكالية كبيرة بخصوص ما يؤكل وما لا يؤكل، كان يكفي سادتنا العلماء الأجلاء – نحن نظن- الوقوف عند اللفظ وتجليته للعامة فقط لتبين الحقيقة كما ينبغي لها أن تبين، وهذا ما سنحاول تبيانه في الحال بحول الله وتوفيقه.

إننا نؤطر للافتراض التالي: تنقسم الحيوانات إلى نوعين: ما يؤكل وما لا يؤكل، فالحيوانات التي تؤكل هي من فصيلة الأنعام والحيوانات التي لا تؤكل هي من فصيلة الدواب. وإن صح هذا الافتراض، فإن علينا التصدي لسؤالين اثنين لا ثالث لهما، أولهما: ما هي الأنعام أو وما هي الدواب؟ فمعرفة صنف يغني عن معرفة الصنف الآخر، فإذا استطعنا أن نحدد فصيلة الأنعام تكون باقي الحيوانات من فصيلة الدواب، والعكس صحيح، وثانيهما: لماذا يؤكل لحم الأنعام ولا يؤكل لحم الدواب؟

ما هي الأنعام؟

قال تعالى:

- ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: 6]

نعم، لقد ورد صراحة في كتاب الله أن الأنعام هي ثمانية أزواج، قال تعالى:

- ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام: 143-144]

فالأزواج الثمانية هي: من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين، فيصبح المجموع ثمانية أزواج، وهو ما أنزل الله لنا من الأنعام، فالزوج هما الذكر والأنثى من الصنف، لهذا جاءت الدقة القرآنية لتتجلى في قوله تعالى:

- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: 66]
- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون: 21]

فترد نفس الآية الكريمة مرة بالتذكير ومرة بالتأنيث، فلحوم الأنعام من ذكورها وإناثها قابلة للأكل، فهذه هي الأنعام التي تؤكل فقط، ولكن يبقى السؤال: لماذا هذه بالذات؟

لماذا نأكل لحم الأنعام من الحيوانات ولا نأكل لحم الدواب؟

فنرد على ذلك بالقول أنّ الجواب موجود في الآية السابقة نفسها، فنذكركم بالآية نفسها لندقق معاً بمفرداتها:

- ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٦﴾ [الزمر: 6]

فالمدقق بالآية الكريمة يجد دقة عجيبة في اللفظ تتمثل بالقول أن هذه الأنعام أنزلها الله لنا، ففي هذه الآية نجد أن الله ينزل لنا الأنعام إنزالاً " وَأَنزَلَ لَكُم "، ولقد بينا في مقالة سابقة لنا أنّ فعل النزول يعني الحركة من السماء باتجاه الأرض، (لمزيد من التفصيل في هذا الباب انظر مقالتنا تحت عنوان: أين كانت جنة آدم؟) فهذه الآية الكريمة تبين أن هذه الأنعام نزلت من السماء بعد أن خلقها لنا ربنا بيديه مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢﴾ [يس: 71-72]

فالمدقق باللفظ القرآني يجد عبارة مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ لتصف تلك الأنعام التي خلقها لنا ربنا، فذللها لنا لنركب عليها ونأكل منها، أما باقي الحيوانات الأخرى فإنها لا تنعت بالقرآن بمثل هذا الوصف " مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ"، فعند الحديث عن الدواب وهي الحيوانات التي لا تؤكل تتكرر الفكرة التالية:

- ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: 164]
- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠﴾ [لقمان: 10]
- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ٢٩﴾ [الشورى: 29]
- ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤﴾ [الجاثية: 4]

فالله قال عن الانعام " مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ " وبعد ذلك أنزلها من السماء إنزالاً، ولكنه بث الدواب في الأرض بثا، وقد يقول أحدهم: لماذا؟

للإجابة على هذا التساؤل نحن بحاجة إلى الخوض في هذا التصنيف لتجلية الفرق بين الأنعام التي خلقها الله بيديه لنأكل منها ونركب عليها من جهة والدواب التي بثها في الأرض من جهة أخرى. ونحن نؤكد في البدء أن هذا التصنيف سيكون له تداعياته وانعكاساته وتجلياته الكبيرة جداً والتي قد تدخل في جذور العقيدة التي نؤمن بها.

الدواب

لنتدبر الآية الكريمة التالية أولاً:

- ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٦١﴾ [النحل: 61]

وتكرر الفكرة في سورة فاطر:

- ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ۝٤٥﴾ [فاطر: 45]

وسؤالنا هو: ما العلاقة بين الحديث عن الدواب و الحديث عن الناس وعذابهم واستعجال عذابهم أو تأخيره؟ فهل لو هلكت الدواب التي على الأرض جميعاً فهل سيكون ذلك نهاية حياة الإنسان؟ فهل ظلم الإنسان ستكون عاقبته نهاية الدواب؟ فهل هذا عدل؟ أي هل من العدل الإلهي أنه إذا وقع الظلم من الإنسان تهلك الدواب؟ إنّ هذا هو التناقض بعينه، فما دخل الدواب بما كسبت أيدي الناس؟ نقول ربما يكون الأمر على هذه الشاكلة إن كان الفهم أن الدواب هي الحيوانات التي في ذهننا، وظن الكثيرون أنها مسخرة فقط لخدمة الإنسان، ولكن السؤال الحقيقي هو: هل فعلاً هذه هي الغاية من وجود تلك الدواب؟ وهنا تبرز الحقيقة الماثلة في الآيات الكريمات التالية:

- ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢﴾ [الأنفال: 22]
- ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥﴾ [الأنفال: 55]

يا الله!! ما علاقة الدواب بالشر؟ نعم، الدواب التي على الأرض (وليس الأنعام) تعمل الشر كما يمكن أن تعمل الخير، وهي بالتالي محاسبة على أعمالها، كلام - لا شك- خطير جداً، أليس كذلك؟ ولكن أليس هذا ما تؤكده الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام: 38]

فالدواب هي بالتالي أمم أمثالنا، أليس هذا ما تتضمنه هذه الآية الكريمة؟ ولنربط ذلك بالطرح السابق الذي يخص تحريم الأطعمة، فنعيد السؤال على النحو التالي: لماذا لا تؤكل لحوم الدواب؟

الجواب: لأنها أمم مثلنا خلقت لعبادة الله، فسجد بعضها:

- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩﴾ [النحل: 49]

وغفل بعضها:

- ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٢٣﴾ [الأنفال: 22-23]
- ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥﴾ [الأنفال: 55]

لربما يثير مثل هذا الطرح حفيظة البعض ليسألوا: كيف تعبد هذه الكائنات ربها؟ ولماذا تكفر؟ وكيف تكلف هذه الحيوانات بالعبادة لتحاسب عليها؟ فنرد بالقول أننا نفهم أن الجواب موجود في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام: 38]

إذا سلّمنا بالفهم أنّ هذه الحيوانات هي أمم أمثالنا، فكيف تكون هذه الحيوانات (الدواب أقصد مثلنا؟ فما هو وجه الشبه بين الدواب من جهة والبشر من جهة أخرى حتى تستطيع أن تكون مؤمنة أو تكون كافرة؟ فنقول إننا نرى أن الإجابة على هذا السؤال ميسرة بحول الله في قوله تعالى:

- ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾ [هود: 6]

نعم الدواب، كما البشر، لها مستقر ومستودع، وهو ما يمكّنها من العبادة أو الكفر، وهذا الأمر ينقلنا على الفور إلى جدلية كبيرة (لا بل كبيرة جداً) ألا وهي: جدلية المستقر والمستودع (القلب والدماغ)، ويكفي القول هنا أن من يملك المستودع والمستقر يمكنه أن يعقل ومن لا يملكهما فهو غير محاسب ولا يتحمل المسؤولية.

ولو حاولنا ربط هذا الموضوع بما توصلنا له من سبب حرمة تحريم لحم الخنزير لوجدنا التطابق العجيب التالي:

لقد ذكرنا أن سبب تحريم لحم الخنزير هو صلة القرابة فقد جرت في عروق الخنازير دماء بشرية وأصبح الخنزير (والقردة بالطبع) الأقرب إلى الجنس البشري. والدواب هي أمم مثلنا، فهي إذاً قريبة من الجنس البشري، فتصبح حكمة التحريم هي القرب من البشر ولا أخال أن البشر سيأكلون لحماً إن اكتشفوا أنّ فيه دماء بشرية أو أنه يشبه لحم البشر.

ولكننا قبل الانتقال إلى جدلية المستقر والمستودع لا بد من التعريج على السؤال المعاكس وهو: ما هي الأنعام وهل تحاسب هي الأخرى على أفعالها؟ وهل للأنعام مستقر ومستودع مثلنا أو حتى مثل الدواب؟

الأنعام

لنبدأ أولاً بآية ترد في كتاب الله تُذكر فيها الأنعام:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14]

فالأنعام إذاً هي من متاع الحياة الدنيا، والله سخرها لنا:

- ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: 36-37]

ولكن ما هي ماهية التسخير هذا؟ جاء في سورة النحل بعض استخدامات الأنعام:

- ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: 5-8]

لاحظ عزيزي القارئ كيف تبين هذه الآيات أن الخيل والبغال والحمير وإن تقاطعت مع الأنعام في بعض الاستخدامات إلاّ أنها ليست من فصيلتها بدليل استقلاليتها في الذكر (الآية 8) عن الأنعام (الآيات 5-7).

فالأنعام (1) دفء و (2) منافع و (3) منها نأكل و (4) جمال و (5) تحمل الأثقال للناس في سفرهم، فحتى يصنف حيوان ما ضمن فصيلة الأنعام لا بد من توافر هذه الشروط مجتمعة، والمثير للانتباه في هذه الآيات الكريمات أنّ الخيل والبغال والحمير ليست من الأنعام بدليل أنها ذكرت منفصلة في آية مستقلة (الآية 8)، فهذه من الدواب وإن تقاطعت مع الأنعام في بعض الاستخدامات، فإذا كانت الخيل والبغال والحمير من الدواب، فإن ذلك يدلنا على أن الدواب بمجملها لا تقع ضمن متاع الحياة الدنيا، ولكن ربما يكون بعضها جزءاً من متاع الحياة الدنيا (كالخيل والبغال والحمير) ولا يكون غالبيتها كذلك (كبقية الدواب).

فهي ليست من فصيلة الأنعام لسبب أنها قد لا تفيد في بعض الاستخدامات السابقة، والدليل القاطع الذي نستقصيه من كتاب الله على أنها ليست من الأنعام التي تؤكل هو ما جاء في الآية التالية:

- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: 66]

فللأنعام إذاً استخدام خاص جداً ربما لا تختلف فيه كثير من الأمم: إنّه اللبن، أو الحليب كما يحب أن يسميه أهل بلاد الشام وإن كانت التسمية الحقيقية له هي اللبن، فما يخرج من بطون الأنعام من بين فرث ودم كشراب سائغ للشاربين هو لبن في كتاب الله، والعرب يقولون حلبت الناقة لبناً وليست حلبت حليباً كما قد يخطئ البعض.

المهم بالموضوع أن الأمم جميعها تشرب لبن الأنعام ولا تشرب لبن الدواب، فمن من الأمم تشرب لبن الكلاب أو الحمير أو حتى البغال والخيل؟ فما لم يسخره الله لنأكل لحمه لا نشرب لبنه، وإلاّ لأصبح التناقض واضحا: أن تأكل لحم الكلاب ولكن لا تشرب لبنه، أو أن تشرب لبن البقر ولكن لا تأكل لحمه، إن القاعدة القرآنية سهلة ميسرة لا تناقض فيها: ما يشرب لبنه يؤكل لحمه مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النحل: 66]

ولا شك أنّ التباين بين الأمم حصل على اللحم، وقلما وقع خلاف بخصوص اللبن. ولو أمعنا التفكير في المسألة لوجدنا أن الخلاف بين الناس بخصوص ما يؤكل وما لا يؤكل يختلف من حيوان إلى حيوان، فقلما اختلف المسلمون مثلاً حول لحم الكلاب ولكن هناك خلاف بخصوص الحمير أو الخيل، وهكذا، ويأتي سؤالنا على النحو التالي: لم يتباين الاختلاف من حيوان إلى حيوان؟ إن الجواب هو في جملة الخصائص التي ذكرها لنا ربنا عن الأنعام، فقد ذكرنا آنفاً أن الأنعام تستخدم في (1) دفء و (2) منافع و (3) منها نأكل و (4) جمال و (5) تحمل الأثقال للناس في سفرهم، والاستخدام الفيصل السادس ذكر منفصلاً في آية خاصة وهو اللبن:

- ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النحل: 66]

ونحن نظن أنه كلما قرب الحيوان من هذه الصفات كلما تزايد الاختلاف في مشروعية الأكل منها، وكلما بعد عن هذه الصفات كلما قل الاختلاف، فالمسلمون مثلاً يختلفون حول الحمير لأنها تختلف عن الأنعام فقط في خاصية اللبن، ولكن الكلاب تختلف في خصائص اللبن وحمل الأثقال (وربما الدفء)، ويكاد يتفق المسلمون جميعاً على حرمة لحم الأسود مثلاً لأنها لا تستخدم في حمل الأثقال ولا في اللبن ولا في المنافع، وهكذا.

وأخيراً لا ننسى أن الأنعام قد ذللها لنا ربنا:

- ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢﴾ [يس: 71-72]

ونحن نفهم أن التذليل يتمثل في أن هذه الحيوانات لا تمانع ولا تشط عن هذه الاستخدامات، فبالرغم أنه يمكن تذليل الكلاب ولكن ليس جميع أصناف الكلاب يمكن تذليلها لهذه الاستخدامات، فهي متفاوتة في درجة التذليل، وكذلك القطط، وحتى الحمير والخيل، ولكن الأنعام على وجه التحديد (المعز

والضأن والبقر والإبل) لا تتفاوت في درجة التذليل إطلاقاً، فجميعها حيوانات مدجنّة، ذللها الله سبحانه لاستخدامات البشر، ويمكن استغلال كل ما فيها: اللحم واللبن وحتى أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها:

- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النحل: 80]

(وسنتحدث بشي من التفصيل بعد قليل عن الفرق بين التذليل والتسخير)

وهنا تأتي آية كريمة تثبت هذا التذليل ألا وهي قوله تعالى:

- ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١﴾ [يس: 71]

فالأنعام هي التي يملكها الإنسان، ولكنه – بالمقابل- لا يملك الدواب، ويأتي سؤالنا على النحو التالي: هل يمكن أن تجد الماعز أو الضأن أو البقر أو الإبل غير مملوكة من قبل الناس؟ ولكن كم من الكلاب والقطط وحتى الخيل والحمير أو الأسود والوحوش يمكن أن تعيش في البرية بلا مالك؟ (وسنتعرض لهذه الجزئية بشيء من التفصيل بعد قليل عند محاولتنا التمييز بين الأنعام من جهة والنعم من جهة أخرى)

لذا جاءت الآيات المكملة للآية السابقة التي تثبت ملكية الناس للأنعام على النحو التالي:

- ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٧٣﴾ [يس: 72-73]

ويبقى السؤال التالي: لماذا نأكل لحوم الأنعام ونشرب لبنها؟ إن هذا السؤال يعيدنا إلى موضوع المستقر والمستودع، ويتمثل الجواب الذي نستنبطه عند استدعاء بعض السياقات القرآنية في ظننا أنّ الأنعام (على عكس الدواب) ليس لها مستقر ولا مستودع، فهي لا تكون مؤمنة ولا تكون كافرة، وليس أدل على ذلك من ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفرقان: 44]

ففي هذه الآية الكريمة تصريح واضح أنّ الأنعام لا تسمع ولا تعقل، فهي كما النباتات لا تحاسب على أفعالها، فحتى وإن كان لها أعين فهي شكلية معطلة الوظيفة، وحتى وإن كان لها أذان فهي شكلية معطلة الوظيفة، وحتى وإن كان لها قلوب فهي معطلة كذلك، قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: 179]

ونصل إلى ذروة مبتغانا بالقول: إن المحرم من الحيوانات هي الدواب لأنّ لها آذان وأعين وقلوب تميز بها كما البشر، فمنها المؤمن ومنها الكافر:

- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل: 49]
- ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: 55]

أما الأنعام –بالمقابل- فلها آذان وأعين وقلوب، ولكنها معطلة الوظيفة، وبالتالي فقد ذلّلها الله لنا كما النباتات، فنأكل لحمها ونشرب لبنها ونستخدم أصوافها وأوبارها وجلودها، ولنا فيها منافع أخرى. والملفت للانتباه أنّ الله أنزل الأنعام من السماء ولكنه بثّ الدواب في الأرض.

والسؤال الأخير الذي ربما يثيره البعض هو: كيف تؤمن الدواب وتكفر؟ نقول إن ذلك بسبب أنها تملك (كما البشر) مستقراً ومستودعاً، وللنظر إلى التماثل العجيب بين البشر من جهة والدواب من جهة أخرى كما ورد في سورة الأنعام وهود:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: 98]
- ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: 6]

فنحن البشر لنا مستقر ومستودع، وكذلك الدواب لها مستقر و مستودع، وجل ما نحتاجه هو تجلية معنى المستقر والمستودع الذي ورد في هاتين الآيتين الكريمتين.

ونحن نعرف بالدليل القرآني القاطع أن الخلق بدأ كله من نفس واحدة وخلق منها زوجها بعد ذلك، قال تعالى في الآية الأولى من سورة النساء:

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ...

ولكن الأمر الذي يسلب الألباب ويصعق العقول هو تكملة الآية نفسها:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: 1]

ولو حاولنا ربط ذلك مع خلق الدواب على وجه الخصوص (وليس الأنعام) كما ورد في الآيات القرآنية التي ذكرناها آنفا لوجدنا العجب العجاب:

- ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: 164]

- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠﴾ [لقمان: 10]
- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ٢٩﴾ [الشورى: 29]

فالله بثّ من نفس واحدة رجالاً كثيراً ونساء، وهو كذلك خلق السموات والأرض وَبَثَّ فيهما من كل دابة، ولهذا عقدت المقارنة العجيبة بيننا نحن البشر من جهة والدواب من جهة أخرى:

- ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤﴾ [الجاثية: 4]

فهل سننتظر حتى يفاجئنا أحد علماء الغرب ليفرق بين نوعين من الحيوانات بعد إجراء التجارب المخبرية والميدانية ليخلص أنّ الأنعام تختلف عن الدواب، وعندها ننبري لنتغنى بما جاء في كتاب الله من علم سبق المعرفة البشرية؟ لم لا نكون نحن المبادرين بمثل هذه الحقائق العلمية ما دامت أصولها مثبتة في كتاب الله؟

نعم إننا من الموقنين أنّ خلقنا وخلق الدواب متشابه، وهي آية من آيات الله ستتجلى للبشر حتى بعد حين. وبهذا ندرك سبب أن الدواب (وليس الأنعام) والبشر سيحشرون إلى ربهم يوم القيامة

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: 38]

وأخيراً لا بد من التعريج على آية عظيمة في كتاب الله تبين لنا التشابه العجيب بين البشر والجن والدواب، والتي ربما تنير لنا حقيقية أخرى في كتاب الله، قال تعالى:

- ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾ [النور: 45]

فإذا عُدنا إلى أساس الخلق، وجدنا أن الله خلق الجن من نار:

- ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الحجر: 27]

وخلق الإنسان من تراب:

- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ [الروم: 20]

وخلق الدواب من ماء:

- ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾ [النور: 45]

والنتيجة المفاجئة التي نصلها أنّ هذه الأصناف الثلاث من الخلائق سوف تحشر لتحاسب على أعمالها

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: 38]

ولربما يسعفنا هذا في فهم ردة فعل الملائكة عندما تلكأت بقبول خلافة آدم الأرض في بداية الأمر، فعللوا ذلك بالقول:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: 30]

فكثيراً ما أثير التساؤل التالي: كيف علمت الملائكة بخبر الإفساد وسفك الدماء؟ فنرد على ذلك بالقول: مما كانت تعمل المخلوقات التي جعل الله لها مستقرا ومستودعا، وكانت متواجدة على الأرض (الجنة) قبل سكن آدم، إنها الجن والدواب.

وربما يفسر هذا الطرح قضية لغوية في كتاب الله ألا وهي الأمر الإلهي لسكان الجنة بالهبوط، فقد جاءت على النحو التالي:

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 36-38]
- ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: 123]

فلقد جاء الأمر بصيغتين: صيغة الجمع (ٱهۡبِطُواْ) وصيغة المثنى (ٱهۡبِطَا)، فلقد قلنا سابقاً أن صيغة المثنى جاءت هنا لتعود على جنس البشر ممثلين بآدم وزوجه من جهة وجنس الجن من جهة أخرى وذلك بدليل ورود مفردة جميعاً (ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ)، فالعربية لا تستخدم هذه الصيغة عند الحديث عن تثنية للشخصين كان تقول "جاء علي وسالم جميعاً" أو "هبط آدم وحواء جميعاً"، ولكن يمكن استخدامها عند

الحديث عند التثنية لمجموعتين، فتقول مثلاً "جاء طلبة الصفين جميعاً" أو "هبط سكان القريتين جميعاً"، وهكذا. لمزيد من التوضيح انظر مقالتنا: أين كانت جنة آدم؟

وهناك ما يستدعي الانتباه حول الموضوع وهو ما جاء في سورة البقرة بخصوص الأمر الإلهي بالهبوط، ونعيد الآيات هنا ليتمكن القارئ الكريم من إمعان النظر والتفكر بحرفية الآيات:

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 36-38]

فكما ترى يصدر الأمر الإلهي في الآية (36) بالقول: وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ، ثم يتلقى آدم من ربه كلمات فيتوب عليه، ثم يعود الأمر الإلهي بالهبوط مرة أخرى على النحو التالي: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا، وتساؤلنا هو لماذا يعود الأمر الإلهي بالصدور مرة أخرى ما دام أنه قد صدر من ذي قبل، فنرد بالقول أن حل هذه المسألة يصبح ميسراً ضمن الإطار الذي نطرحه هنا وهو على النحو التالي:

كان يسكن الجنة التي سكنها آدم الجن والدواب والبشر (ممثلين بآدم وزوجه) فصدر الأمر الإلهي بالهبوط، فظن الحضور أن الأمر يخص آدم وزوجه عندما جاء على النحو التالي:

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: 36]

ولما تلكأت الجن عن الهبوط جاء الأمر الإلهي لهم:

- ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: 123]

وعندما تلكأت الدواب عن الهبوط صدر الأمر الإلهي القاطع بالهبوط للجميع:

- ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 38]

وعندما كانت الدواب غير معنية بما أحدث آدم وزوجه (البشر) والجن من المعصية بخصوص الأكل من الشجرة جاء التطمين الإلهي في الآية نفسها للجميع بالقول: فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ.

فالله سبحانه أمر الجميع (البشر والجن والدواب) بالهبوط، وفي الوقت ذاته خط لهم النهج الذي لا جدال فيه على نحو: فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، ولكن الحساب والشقاء سيكون لمن اتبع غير هذا المنهج.

ربما يثير مثل هذا الطرح حفيظة البعض لطرح قضية تخص أكل لحوم الحيوانات البحرية والبرية والطيور، فهم يثيرون التساؤل التالي: كيف يمكن ربط التصور الذي تطرحه مع حقيقة أكل لحوم الحيوانات البحرية والبرية وبعض أنواع الطيور؟ فنرد على ذلك بالقول أن هذا يتطلب استدعاء سياقات قرآنية كثيرة لخلق حلقات ذهنية مترابطة يتم من خلالها الوصول إلى استنباطات عديدة، وفي هذا السياق نود التركيز على ثلاثة أسئلة متداخلة وهي:

1. لماذا نأكل لحوم جميع الحيوانات البحرية؟
2. لماذا لا نأكل لحوم جميع الحيوانات البرية؟
3. وهل نستطيع أن نأكل لحوم جميع أنواع الطيور؟

الحيوانات البحرية

أما بالنسبة للحيوانات البحرية، فربما لا نجد كثير عناء في تمرير الرأي بأن الله قد أحل لنا أن نأكل لحوم جميع الحيوانات البحرية، لأن هذا هو الفكر السائد أصلاً:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: 14]

لكن السؤال الأكثر إثارة هو لماذا لا ينطبق المنطق نفسه على الحيوانات البرية؟ وأين الدليل على أن الله قد حرم علينا جزءاً من الحيوانات البرية وفي الوقت ذاته لم يحرم علينا شيئاً من حيوانات البحر؟

نحن نزعم الظن أن الإجابة على هذا التساؤل يمكن استنباطها من الآية الكريمة التالية:

- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة: 96]

ولكن كيف؟

جواب: لقد استوقفتنا هذه الآية الكريمة طويلاً لأنها أثارت تساؤلاً كبيراً جداً يتعلق بعبارة " صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ "، فأثارت التساؤل التالي: ما هو صيد البحر وما هو طعامه؟ والأهم من ذلك في رأينا هو لِمَ لَم تأت مفردة وَطَعَامُهُ مع صيد البر، فهناك صيد البر ولكن ليس هناك طعامه (وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ) كما

الحال بالنسبة للبحر (صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ)؟ فما المقصود بعبارة وَطَعَامُهُۥ التي جاءت في سياق الحديث عن صيد البحر ولم تأت في سياق الحديث عن صيد البر؟

رأينا: نحن نظن أن فهماً صحيحاً لهذا التركيب غير المتوازن بين سياق الحديث عن صيد البر من جهة وصيد البحر من جهة أخرى ربما (نحن نفتري القول) تحل إشكالية عظيمة في الفكر الديني تخص كل ما يؤكل وما لا يؤكل من الكائنات الحية، ولكن كيف؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن أن كلمة الصيد التي وردت في هذه الآية هي المفتاح في هذا السياق القرآني الكريم، لأنها تدل على الفعل الذي نقوم به في البر والبحر، ففعل الصيد يقع في الحالتين في البحر وفي البر، ولكن في حين أنه يقع في البحر على كل ما فيه من كائنات حية، لا يقع فعل الصيد على كل الكائنات الحية المتواجدة في البر، فالصيد يقع على الفريسة التي يتم اصطيادها، لذا نحن نفتري الظن أن كل ما في البحر يمكن أن يكون فريسة، ولكن ليس كل ما في البر يمكن أن يكون فريسة، ولكن كيف؟

رأينا: لو تأملنا ما يجري في البحر لوجدنا أن الكائنات الموجودة في البحر تتغذى على بعضها البعض، فهناك الكائن المفترس (كالحوت مثلاً) وهناك الفريسة (كبقية الأسماك)، فالأسماك في البحر هي – دون أدنى شك- طعام للحيتان، ولكن العكس ليس صحيحاً، فالحيتان (مادامت حية) ليست طعاماً للأسماك الصغيرة، أليس كذلك؟ وهنا يأتي منطقنا الذي نحاول تسويقه على النحو التالي: لقد أحل الله لنا الفريسة والمفترس في البحر، وهو ما يمكن أن نفهمه نحن من عبارة (صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ)، فالآكل والمأكول من كائنات البحر يمكن أن نأكله.

ولكن الصورة ليست كذلك في البرية، حيث تكون بعض الكائنات الحية فريسة لغيرها ولكنها لا تفترس غيرها، فالغزال لا يفترس الأسد، ولكن الأسد يفترس الغزال، وهنا يأتي القانون الإلهي –كما نزعم- على نحو أن الله قد أحل لنا صيد البر فقط (أي الفريسة التي يمكن اصطيادها) ولكنّه لم يحل لنا طعامه، فالفريسة تكون طعاماً لحيوان مفترس (يقوم هو أيضاً كما نقوم نحن بفعل الصيد في البرية)، فنحن البشر وتلك الكائنات الحية المفترسة نبحث في البرية عن فريسة لنصطادها، لتكون طعاما لنا وطعاما لهم، والفائز بالجائزة هو من يسبق إليها ، وربما لهذا – حسب رأي صديقي الدكتور هيثم العزام- نشأت العداوة بيننا وبينهم، فنحن جميعاً نتنازع على الحصول على الغنيمة نفسها، فتلك الكائنات تكرهنا (نحن البشر) لأننا ننازعها في رزقها.

فالله لم يحل لنا من تكون تلك الفريسة طعاماً له (أي الحيوان المفترس كالأسد والنمر ونحوها)، ولكنه أحل لنا فريستها التي يمكن اصطيادها فقط، لذا جاء قول الحق على نحو (وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا)، فما أن نفرغ من الإحرام حتى يصبح الصيد (أي الفريسة من تلك الكائنات) حلالا أكله، ولكن لا يجوز أن نأكل ما كانت تلك الفريسة طعاما له. ولهذا ربما تصبح الصورة على نحو الافتراء التالي: لا يجوز أكل المفترس من الكائنات البرية لأنها ليست من النعم.

فنحن لا نأكل الكلب مثلاً لأنه ليس صيداً ولكن الصيد طعام له، فهو يقوم بفعل الصيد، وكذلك الحال بالنسبة للقطة (الهرة)، والأسد، والنمر، ونحوها. ولكن هذا لا ينطبق على الأرنب أو الغزال أو الحمار الوحشي ونحوها، فهذه كائنات يمكن أن تصطاد ولكنها لا تفترس غيرها، فغيرها من الكائنات الحية ليست طعاما لها. والله أعلم.

إن هذا الافتراض يقودنا على الفور للتفريق بين مفردتين قرآنيتين وردتا عند الحديث عن الطعام (حلاله وحرامه) وهما مفردتا "الأنعام" والنعم. لنطرح التساؤل التالي: ما الفرق بين الأنعام والنعم؟

جواب: مادام أن منهجيتنا تنبني على الافتراض القائل بأن الاختلاف في اللفظ يؤدي بالضرورة إلى اختلاف في المعني، فلابد من الوصول إل النتيجة التي لا مفر منها والتي تتلخص بأن الأنعام شيء والنعم شيء آخر، ولا يجوز الخلط بينهما.

الدليل

جاء الحديث عن "النعم" على وجه الخصوص في الآية الكريمة التالية التي تتحدث عن قتل الصيد وقت الإحرام في الحج:

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ [المائدة: 95]

ونحن إذ نقرأ هذه الآية الكريمة لنستغرب (ربما لجهلنا) أن تكون فتوى علماء المسلمين لمن قام بفعل الصيد وهو في حالة الإحرام أن يقوم بذبح شيء من الأنعام كالماعز أو الضأن أو البقر أو الإبل ككفارة عن ما فعل، فالآية الكريمة تدل بما لا لبس فيه أن الجزاء هو من مثل ما قتل من "النعم" (فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ) وليس من الأنعام، فمادام أن النعم هي المقتولة التي تم اصطيادها، فكيف تكون الكفارة من الأنعام التي تكون مملوكة؟ أليست الكفارة من مثل ما قتل من النعم؟ فهل يمكن أن يعود الحاج المعتمر ببقرة أو ماعز أو شيء من الضأن أو الإبل ليدعي أنه قام باصطياده؟ فهل تصطاد تلك الكائنات (أي الأنعام) اصطياداً؟ من يدري!!!

إن مراد القول هنا هو أن "النعم" ليست "أنعاماً" لأن النعم يتم اصطيادها اصطياداً، ولكن الأنعام بالمقابل فهي حيوانات لا تصطاد لأنها مملوكة:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ [يس: 71]

وهي كائنات قد ذللت ويتم استخدامها في الركوب، فلا تتواجد في البرية:

- ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس: 72]

وبالإضافة إلى أنها كائنات يؤكل منها، فهي كائنات ننتفع بها ونشرب لبنها (أو حليبها كما يرغب أهل الشام أن يسموه):

- ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: 73]

نتيجة مفتراة: نحن نزعم القول أن الأنعام هي كائنات مملوكة لا يمكن أن يتم اصطيادها، أما النعم فهي كائنات برية يمكن أن يتم اصطيادها.

ولا ننسى كذلك أن الأنعام كما ذكرنا سابقاً هي قد خلقت بأيدي الرحمن وأنزلها من السماء إنزالا:

- ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: 6]
- ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام: 143-144]

ثانياً، لو دققنا بالآية الكريمة جيداً لوجدنا أن الكفارة تكون بمثل ما قتل من النعم، فأنت إن اصطدت شيئاً من البرية فكفارته بمثله، فلو اصطدت أرنباً فكفارته بـ "مثل الأرنب"، وإن أنت اصطدت غزالاً فكفارته بـ "مثل الغزال"، وإن أنت اصطدت حماراً وحشياً، فكفارته بـ "مثل الحمار الوحشي"، وهكذا، فهل يعقل أن تصطاد عصفوراً لتكون كفارته من الضأن أو الماعز أو البقر أو الإبل؟ فكيف يتم ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الكفارة تكون على نحول "مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ"، وهذا – بكل تأكيد- لا يكون باصطياد نعما أخرى مثل التي قتلها المحرم لأن الحاج لا زال في مرحلة الإحرام، فكيف به أن يقوم بفعل القتل مرة أخرى، فإن هو فعل، فهذا يعني أنه يقوم بالاصطياد مرة أخرى وبالتالي الوقوع في المحظور من جديد، وهكذا. لذا نحن نفتري الظن أن الكفارة تكون بدفع قيمة المثل كما يحكم به ذوا عدل "فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ"، أي إن قام الحاج المحرم باصطياد أرنب بري مثلاً، فإن كفارة ذلك – في رأينا- لا تكون بأن يقوم باصطياد أرنب مثله، ولكن تكون بأن يقدر ذوا العدل قيمة ذلك الأرنب تقديرا (ويكون ذلك بالنقد أو بالطعام) يتم دفعه هدياً بالغ الكعبة أو لإطعام المساكين (أو الصيام إن تعذر

دفع المثل). ولو كانت الكفارة بقتل شيء من الأنعام (الماعز والضأن والبقر والإبل) لما كان هناك حاجة لتدخل ذوي عدل منا للقيام بعملية الحسبة.

والحكمة من ذلك - كما نظنها - تتمثل في أن تلك الثروة البرية (النعم) وإن لم تكن ملكية فردية لشخص بعينه إلا أنها ملكية خاصة لأهل تلك الديار التي يمر بها الحاج المحرم، ومادام أن الحجاج يأتون من كل فج عميق، فليس لهم الحق في التعدي على ممتلكات الآخرين، لذا إن قام الحاج المحرم بقتل شيء من تلك النعم، فعليه أن يدفع تعويضاً لأهل تلك المنطقة لأنه تعدّى على ممتلكاتهم، وخاصة لفقرائهم الذين غالباً ما يعتاشون على ما تجني أيديهم ورماحهم لتوفير قوتهم وقوت عيالهم من تلك النعم.

ولكن - بالمقابل- نجد الرخصة بالنسبة لصيد البحر مفتوحة (حتى وقت الإحرام) وذلك لأنّ البحر في رأينا- ليس ملكية فردية لأحد، وهو ليس ملكية خاصة لأهل منطقة معينة، وإنما هو ملكية عامة للجميع، لذا عندما تقوم أنت باصطياد شيء من البحر، فأنت لا تعتدي على ملكية الآخرين، والله أعلم.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري القول أن الأنعام هي ثمانية أزواج فقط (مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ) و (وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ)، وهي حيوانات مملوكة لا يتم اصطيادها، بينما النعم – بالمقابل- فهي الحيوانات غير المملوكة (موجودة في البر والبحر) التي يمكن أن يتم اصطيادها. ففي حالة البحر فإن الله أحل لنا المفترِس منها والمفترَس (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ) بينما في البر لم يحل الله لنا منها إلا المفترَس (وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ) فقط.

الطيور

بعد تدبرنا لبعض آيات الكتاب الكريم، أصبح لزاماً أن نتفكر بماهية الطير كما ترد في كتاب الله، لا كما تعودنا على فهمه من حياتنا وثقافتنا اليومية، ونزعم الظن أننا استطعنا الخروج بالاستنباط التالي الذي هو أيضاً من عند أنفسنا: هناك نوعان من الطير وهما:

1. طيور تطير بجناحيها
2. طيور لا تطير بجناحيها

الدليل

لنمعن التفكير في الآية الكريمة التالية:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ٤١﴾ [النور: 41]

ما الذي يمكن أن تستنبطه- عزيزي القارئ- من هذه الآية الكريم بالنسبة للطير؟ هل الطير موجودة في السماء؟ هل الطير موجودة في الأرض؟

رأينا، كلا وألف كلا، لو كانت الطير من مخلوقات الأرض أو من مخلوقات السماء لما كان هناك حاجة أن يكون هناك تكملة للآية الكريمة ولربما جاءت على النحو التالي:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: 41]

ولكن لمّا كانت الطير مخلوقات ليست أرضية وليست سماوية كان لزاماً أن يأتي ذكرها في الآية الكريمة لتكون مشمولة بخطاب التسبيح:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: 41]

فالمسبحون لـ لله هم (1) من في السموات و (2) من في الأرض و(3) الطير

سؤال: مادام أن الطير – كما تزعم- ليست من مخلوقات الأرض، ومادام أنها ليست من مخلوقات السماء، فأين هي إذن؟

جواب: هي مخلوقات متواجدة في جو السماء:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: 79]

نتيجة: لابد من التفريق بين ثلاث كينونات حسب مكان تواجدها:

---

1. مخلوقات متواجدة على الأرض
2. مخلوقات متواجدة في السماء
3. مخلوقات متواجدة في "جو السماء" وهي الطير موضوع حديثنا هنا.

وهذا الزعم ينقلنا على الفور إلى الغوص في ماهية تلك الطيور كما ترد في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: 38]

فالدواب التي على الأرض هي بنص الآية الكريمة أمم أمثالنا، ولكن هناك – حسب صريح الآية نفسها- أمة أخرى مثلنا، ولكنها غير متواجدة على الأرض: إنها الطير التي تطير بجناحيها. ولكن الاستنباط

الذي لابد من الخروج به أيضاً من هذه الآية الكريمة هو الإيحاء لنا أن للتفريق بين الطير التي تطير بجناحيها (والتي نظن أنها متواجدة في جو السماء) والطير التي لا تطير بجناحيها (والتي نظن أنها موجودة على الأرض).

فالطير التي لا تطير بجناحيها ومتواجدة على الأرض تقع في –حسب ظننا- ضمن فئة الدواب، وبشكل أكثر دقة فهي من فصيلة النعم التي يمكن أن تصطاد اصطياداً:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾ [المائدة: 95]

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الطير المتواجدة في جو السماء ليست من النعم وبالتالي لا يجوز اصطيادها وأكلها. وهذا ما سنحاول الخوض فيه في الصفحات التالية

باب الطيور التي تطير بجناحيها

سؤال: ما هي صفات تلك الطيور التي تطير بجناحيها في جو السماء؟

قال تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ١٩﴾ [الملك: 19]

نتيجة: لو أمعنا النظر في هذه الآية الكريمة لوجدنا أن خصائص تلك الطير تتمثل في أنها: (1) متواجدة فوقنا، وهي (2) من الصافات، وهي (3) ممن يقبضن، وهي (4) ممن ما يمسكهن إلا الله (الرحمن)، وهي (5) بلا شك ممن قد علم صلاته وتسبيحه كما في الآية الكريمة التالية:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ٤١﴾ [النور: 41]

وهي (6) بلا شك تقع ضمن نطاق الكائنات المسخرة كما في الآية الكريمة التالية:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٧٩﴾ [النحل: 79]

لذا لابد من الخوض في كل هذه الصفات للخروج باستنباطات (نسأل الله أن تكون) صحيحة حول ماهية هذه الكائنات.

1. الطير فوقنا

سؤال هل كل الطير متواجد فوقنا؟

جواب: لا، ليس كل الطير متواجد فوقنا، فهناك ما نسميه بالطيور الدّاجنة كالدجاج والديك الرومي التي لا تطير بجناحيها

سؤال: أين تتواجد الطيور التي فوقنا؟

رأينا: هي ليست في السماء وهي ليست في الأرض وإنما في جو السماء:

- ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾ [النحل: 79]

أي ما بين السماء والأرض. فالله أكد في أكثر من موضع على ما بين السماء والأرض:

- ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ [المائدة: 17]
- ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة: 18]
- ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ [الحجر: 85]
- ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: 65]
- ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦﴾ [طه: 6]
- ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦﴾ [الأنبياء: 16]
- ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩﴾ [الفرقان: 59]
- ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤﴾ [الشعراء: 24]
- ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الروم: 8]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٤﴾ [السجدة: 4]
- ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥﴾ [الصافات: 5]

- ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ [ص: 10]
- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: 27]
- ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ [ص: 66]
- ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الزخرف: 85]
- ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾﴾ [الدخان: 7]
- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان: 38]
- ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف: 3]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: 38]
- ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [النبأ: 37]

2. الطيور التي في السماء ما يمسكهن إلا الرحمن

نحن نفتري الظن أن الإمساك هو عكس الحرية، فعندما تمسك بشيء فأنت تحد من حريته، ولابد للإمساك أن يحدث في مكان معين مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [النساء: 15]

فإمساك المرأة التي جاءت بفاحشة مبيّنة يكون في البيت، فلا يسمح لها بالخروج منه، ولو حاولنا ربط ذلك بقضية الطيور (والطعام بشكل عام) لوجدنا الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة: 4]

فالله يأمرنا في هذه الآية الكريمة أن نأكل مما أمسك علينا (فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ)، فكيف يمكن أن نفهم أن الله قد أمسك علينا نوعاً من الطعام في الوقت الذي يقول عن الطيور التي تطير في جو السماء أنه ما يمسكهن إلا الرحمن؟

ولا شك عندنا أن من يمسك بشي هو من يستطيع أن يتصرف به:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج: 65]

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ [فاطر: 41]

رأينا: إذا كان الإمساك (كما نعتقد) هو الحبس في مكان محدد، فإننا نظن أنه بالإمكان تقسيم الطيور إلى قسمين هما:

1. الطيور التي تطير بجناحيها وهي الطيور التي ما يمسكهن إلا الرحمن، لذا لا يمكن أن تدجّن (أي أن تكون طيوراً بيتيه محبوسة في مكان بذاته) لتربتها والاستفادة منها بالأكل
2. الطيور التي أمسكها الله علينا، فكان تدجينها من الله لنا، فأصبحت طيوراً بيتيه يمكن أن تحبس في مكان محدد بذاته لتربيتها والاستفادة منها بالأكل، وهي التي لا تطير بجناحيها في جو السماء.

3. الطيور التي في السماء مسخرة (وليست مذلّلة)

والنوع الأول من الطيور التي لا تدجن والتي تطير بجناحيها هي طيور مسخرة بنص الآية الكريمة التالية:

- ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾ [النحل: 79]

فما معنى أن تكون تلك الطيور كائنات مسخرة؟

جواب: لو استعرضنا التسخير في كتاب الله لوجدنا أن الله قد سخّر لنا ما في السموات والأرض؟

- ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾ [لقمان: 20]

سؤال: إذا كان الله قد سخر لنا ما في السموات والأرض، فهل نأكل كل ذلك؟

جواب: لا يمكن أن نأكل ما هو مسخر لنا، فالله قد سخّر لنا الشمس والقمر والنجوم:

- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: 54]

وسخر لنا الليل والنهار:

- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ [النحل: 12]

وسخر لنا البحر:

- ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢﴾ [الجاثية: 12]

وبنفس المنطق، يمكننا أن نقول أن الله قد سخر تلك الطيور التي في جو السماء:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٧٩﴾ [النحل: 79]

فالتسخير- كما نظن- لا يعني الأكل، وإنما القيام بوظيفة ما يستفيد منها الإنسان، وليس أدل على ذلك من هدهد سليمان، فالله قد علم سليمان ووالده داود من قبله منطق الطير:

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ١٦﴾ [النمل: 16]

فكان الطير واحد من الأركان الأساسية الثلاث في جيش سليمان وهي: الجن والإنس والطير:

- ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٧﴾ [النمل: 17]

وقام سليمان بتفقد ذلك الجزء على وجه التحديد، فلم يجد الهدهد حاضراً حينئذ:

- ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ٢٠﴾ [النمل: 20]

وذلك لأن ذلك الهدهد كان يقوم بوظيفته في الوقت الذي لم يكن حاضراً في الطابور التفقدي عند سليمان:

- ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ٢٢﴾ [النمل: 22]

نتيجة مفتراة: لم يكن الهدهد (بوصفه واحدا من الطير) متواجداً في جيش سليمان من أجل أن يكون طعاماً للجن والإنس، ولكنه كان من أمة (كما الجن والإنس) مثلنا، يقوم بوظيفة توكل إليه من القائد سليمان. (وسنتعرض لتفاصيل هذا الطائر عند الحديث عن سليمان في مقالات منفصلة بحول الله وتوفيقه، فنسأل الله أن ينفذ أمره بإرادته ومشيئته لنا الإحاطة بشيء من علمه)

النتيجة: إن الطرح السابق يوصلنا إلى الافتراء التالي: الطيور التي تطير بجناحيها هي كائنات مسخرة وليست كائنات مذلّلة لانّ الكائنات المذلّلة هي – نحن نفتري الظن- الكائنات التي تقوم بوظيفة ولكنها في الوقت ذاته يمكن الاستفادة من لحومها كطعام ويمكن أن تقدم لنا الشراب والمنافع أخرى، ولننظر إلى الدقة المتناهية كيف يصور الله لنا الأنعام في سورة يس:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: 71-73]

فالأنعام قد ذللت لأنها لا تقوم فقط بوظيفة كحمل الأثقال، ولكنّنا نستفيد منها بحد ذاتها، ولكن بالمقابل يمكن القول أن ما سخره الله لنا لا نستهلكه بحد ذاته، فالبحر مثلاً قد سُخِر لنا لأننا نستفيد منه في وظيفة ما يؤديها لنا، وكذلك الشمس والقمر والشمس والنجوم، فكلها كائنات مسخرة لنا ولكن الله لم يذلّلها لنا كما الأنعام. وهذا يدعونا إلى أن نفهم أن الطيور المسخرة في جو السماء يمكن أن تقوم لنا بوظيفة ما، لكننا لا نأكلها نفسها.

الطيور التي في السماء صافات ويقبضن

عند الحديث عن الطيور التي في جو السماء، جاءت صفة الصافات ملازمة لتلك الكائنات كما في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: 79]
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: 19]

سؤال: ما معنى أن تكون تلك الكائنات صافات؟

جواب: لا بد أن نميز بين لفظين متشابهين وردا في كتاب الله وهما:

1. صفاً
2. صفاً صفاً

فعند الحديث عنا نحن البشر جاء الخطاب على نحو " صَفًّا " وكفى، كما في قوله تعالى:

- ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: 48]
- ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾﴾ [طه: 64]
- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: 4]

بينما جاء الحديث عن الملائكة والملك على نحو صَفًّا وعلى نحو صَفًّا صَفًّا

- ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ: 38]
- ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: 22]

سؤال: فما الفرق بين صفاً من جهة وصفاً صفا من جهة أخرى

رأينا: نحن نفتري القول أن صفاً تعني الاصطفاف بطريقة أفقية، فالجيش عندما يقاتل صفاً يكون هناك أكثر من صف ولكنهم وراء بعضهم البعض، بغض النظر عن عدد الصفوف التي يكوّنونها، وعندما أتذكر الغرفة الصفية التي ندرس وندرس فيها، نجدها عبارة عن عدة صفوف وراء بعضها البعض ولكنها جميعها تشكل صفا واحدا كالصف الخامس ب أو السادس ج، وهكذا.

ولكن عندما يكون الاصطفاف صفاً صفا فيكون ذلك- في رأينا- بطريقة أفقية و عامودية معاً، فهناك اصطفاف وراء بعضهم البعض ليكوّنوا "صفاً" وهناك اصطفاف فوق بعضهم بعضاً ليكونوا أيضاً "صفاً"، ولو تفقدنا آية الطير جيداً لوجدنا أنها تتحدث عن الاصطفاف فوقنا:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: 19]

لذا أميل الاعتقاد أن الطير والمَلِك (على وجه التحديد) هم مقصود الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾ [الصافات: 1]

والسبب في رأينا يتمثل في أن الملائكة كما الطير هي كائنات أولي أجنحة:

- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: 1]

نتيجة مفتراة: من يكون في هيئة الصافات صفاً (أو صفاً صفاً) هو من يملك أجنحة تمكنه من أن يكون على تلك الهيئة في الترتيب الأفقي و العمودي، أما من لا يكون أولي أجنحة (مثلنا نحن البشر) فهو لا يستطيع أن يصطف صفاً صفا ويكفيه أن يكون صفاً فقط.

باب الطيور التي لا تطير بجناحيها

عند تدبرنا للآيات الكريمة التي تتحدث عن الطير، وجدنا لزاماً أن نتعرض لقصة عيسى بن مريم مع الطير طارحين التساؤلات التالية: ما قصة الطير مع عيسى بن مريم؟ لم كان عيسى يعمل من الطين كهيئة الطير على وجه الخصوص لينفخ فيه؟ لِم لَم يكن يعمل من الطين كهيئة الكائنات الأخرى كالأنعام والدواب والوحوش والسبع والجوارح، الخ؟

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران: 49]
- ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾ [المائدة: 110]

فلا شك أن الخالق – حسب صريح اللفظ القرآني- هنا هو عيسى بن مريم (أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ)، أليس كذلك؟

السؤال: هل يعقل- يا ترى- أن يخلق عيسى كائنات لتعبده وتسبحه؟ ألا يعبد المخلوق خالقه؟

فها هو إبراهيم نفسه يتوجه إلى خالقه ليقر له بكل نعمة هو عليها:

- ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣﴾ [الشعراء: 77-83]

فهل - يا ترى- كان عيسى بن مريم (خالق ذلك الطير) هو من يهديه؟

- ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨﴾ [الشعراء: 78]

رأينا: لا شك أن عيسى بن مريم لم يكن يخلق من الطير المكلفة التي تطير في جو السماء والتي هي أمم أمثالنا، ولكنه كان – نحن نظن- يخلق من الطير غير المكلفة التي لا تطير في جو السماء.

منطق القول: لو كان عيسى يخلق من تلك الطيور التي تطير في جو السماء التي ما يمسكهن إلا الرحمن، فكيف به سيمسكهن هو نفسه، وكيف بالقوم سيتعرفون عليها (مادام أنها ستطير في جو السماء) وكيف بهم سيقرون له بذلك الخلق (مادام أن تلك الطيور ما يمسكهن إلا الرحمن).

رأينا: لا شك عندنا أن ما كان يقوم عيسى بخلقه كان يمكث مع القوم وليس فوقهم، فهي من الطيور التي يمكن أن تتعايش مع الناس، وهي كائنات مذلّلة للأكل وغير مكلفة بالعبادة، لأنها ببساطة ليست أمم

أمثالنا، لذا لم تكن تدين لعيسى بن مريم بالربوبية. ولا تتوقف قصة الطير عند عيسى بن مريم، فها هو إبراهيم نفسه يتعامل مع الطير أيضاً. فما هو الطير الذي وقع في يدي إبراهيم؟

إبراهيم: يصر إليه أربعة من الطير

ربما لا تخفى قصة إبراهيم مع الطير على أحد، فإبراهيم يطلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى وذلك ليطمئن قلبه:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: 260]

تساؤلات حول طير إبراهيم: كيف استطاع إبراهيم أن يأخذ بتلك الطيور إن كانت أصلاً من النوع الذي ما يمسكهن إلا الرحمن؟ أي كيف صرّهن إبراهيم إليه؟ وكيف جعل إبراهيم على كل جبل منهن جزءا؟ وكيف عرف إبراهيم أن تلك الطيور التي وضع على كل جبل جزءاً منها هي نفسها التي جاءت إليه تسعى؟ وكيف دعاهن إبراهيم وهو الذي لم يعلّم منطق الطير كما كان الحال بالنسبة لداوود وسليمان؟ ولم كانت تلك أربعة طيور على وجه التحديد؟ لِم لَم تكن خمسة أو ثلاثة مثلاً؟ ولماذا جاءت تلك الطيور إبراهيم ساعية ولم تأتيه طائرة بجناحيها؟

هذه أسئلة سنحاول أن نتناولها جميعاً بشيء من التفصيل بحول الله وتوفيقه، لكننا سنبدأ بالتساؤل الأخير أولاً مادام أن النقاش يتحدث عن تميز أنواع الطير.

أولاً، لماذا جاءت تلك الطيور إلى إبراهيم تسعى عندما دعاها؟

ألا يجب أن تأتي الطيور إلى إبراهيم طائرة بجناحيها ما دام أنها أصلاً من الطير؟ لم جاءته تسعى ولم تأتي إليه طائرة بجناحيها؟

رأينا: لم تكن طيور إبراهيم من النوع الذي يطير بجناحيه (وإلا لجاءته طائرة) ولكنها كانت من الطيور التي لا تطير بجناحيها فجاءته ساعية، وهذا يدعونا إلى النبش في معنى مفردة السعي، لنفتري بعدها القول بأن السعي لا يكون إلا على الأرض.

الدليل

فها هي عصا موسى حية تسعى:

- ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: 20]

وهي هي حبال السحرة يخيّل للناس من سحرهم أنها تسعى:

- ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه: 66]

وهذا رجل يأتي من أقصى المدينة يسعى ليحذر موسى من خطر مؤامرة ملأ فرعون:

- ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: 20]
- ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس: 20]

وهذا ولد إبراهيم يبلغ مع والده السعي:

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: 102]

وها هم المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم:

- ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد: 12]
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم: 8]

وها هو فرعون نفسه يولي ظهره لموسى سعياً بعد أن أراه الآية الكبرى:

- ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النازعات: 20-22]

وها هو الأعمى يأتي النبي محمد وهو يسعى:

- ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس: 8-10]

مراد القول: لا أظن أن كل هؤلاء جاءوا بطريقة الطيران، ولكني أظنهم قد جاءوا يمشون على الأرض بطريقة السعي، وهي - في رأينا- الحركة على الأرض التي تكون أسرع من المشي العادي ولكنها أقل من الركض، وأظن أنها طريقة الحركة التي يقوم بها الحاج أو المعتمر بين الصفا والمروة.

وأتخيل بالضبط طريقة مشي الطيور البيتية الدّاجنة التي تحاول السير بطريقة سريعة، فلا تصل إلى درجة أن تكون راكضة، ولكنها أكثر سرعة من المشي العادي. ففيها حث للخطى.

نتيجة مفتراة: إن الطيور التي ذبحها إبراهيم ووضع على كل جبل منهن جزءاً لم تكن من النوع الذي يطير بجناحية وإلا لجاءته تطير بجناحيها، ولكنها كانت من الطيور المدجّنة التي تسعى في الأرض فجاءته على تلك الشاكلة.

نتيجة مفتراة: ربما نستطيع من خلال النقاش السابق الخروج بالاستنباط التالي: هناك نوعان من الطيور وهي:

الطير الذي يطير بجناحيه وهو أمم أمثالنا قد علم صلاته وتسبيحه، وهو مسخر لنا للقيام بغرض محدد

الطير الذي يسعى على الأرض ولا يطير بجناحيه وهو ليس أمم مثلنا، وهو مذلل لنا لنستهلكه.

الخاتمة

ناقشت الدراسة الحالية جدلية التحريم في الأطعمة من المنظور القرآني باستخدام أدوات النظرية اللغوية، وخلصت إلى أن الحكمة الأولى من التحريم كانت تتمثل بأن لا يحصل للإنسان السوء (كما كان الحال في تحريم الشجرة على آدم وزوجه)، وحرمت بعد ذلك بعض الطيبات بسبب ما أحدث الإنسان من الظلم (كما كان الحال في تحريم بعض الطيبات على بني إسرائيل)، وحصل في فترة زمنية محددة أن عاقب الله الذين اعتدوا في السبت من بني إسرائيل بأن جعلهم قردة وخنازير فاختلطت الدماء البشرية بدماء الخنازير فانتقل الرجس من تلك الفئة من الناس إلى الخنازير فأصبحت- حسب النص القرآني- رجساً، وتولدت بسبب ذلك صلة قرابة بين الناس من جهة والخنازير من جهة أخرى، ولما أصبح من المتعذر التمييز بين الاثنين جاء التأكيد القرآني المتكرر على حرمة هذا النوع من الأطعمة على وجه التحديد، أما الأنواع الأخرى من الحيوانات فتصنف - حسب النص القرآني- إلى دواب وأنعام، وقد أحل الله لنا الأنعام ولم يحل لنا الدواب، وقد قرأنا في النصوص القرآنية أنّ الأنعام لها قلوب لا تعقل بها ولها آذان لا تسمع بها ولها أعين لا تبصر بها، لذا فلا ضير أن تذبح وتؤكل، فهي بذلك كالشجرة التي تهتز عندما تقطف منها ثمرة لكنك لا تشعر بالذنب أنك قد اعتديت عليها، أما حرمة الدواب فقد جاءت بسبب أن تلك المخلوقات هي أمم أمثالنا، فهي محاسبة على أعمالها ومكلفة بالعبادة، لذا فإنك إن قمت بقتلها وأكلت منها فلا بد أنك تشعر بالذنب لأنك قد اعتديت عليها، ولما كانت الأنعام غير مكلّفة وقد خلقها الله فقط ليستفيد منها الإنسان، كانت النتيجة على النحو التالي: أكل الإنسان لحمها وشرب حليبها واستفاد من أصوافها وأوبارها وأشعارها، فكانت كلها طيبة وذلك لأن الله خلقها بيده وذللها لنا للاستفادة منها في كل شيء. فكانت القاعدة الذهبية التي نحاول الترويج لها على نحو: نأكل لحوم الحيوانات التي نشرب حليبها، لذا فإننا نسأل كل من

يأكل لحم الخنزير مثلاً سؤالاً بسيطاً: إذا كنت لا تجد ضيراً في أن تأكل من لحم الخنزير، فما الذي يمنعك عن شرب حليبه؟!

وحاولنا في الجزء الثاني من هذه المقالة التفريق بين الأنعام والنعم ككينونتين مختلفتين، فزعمنا الظن أن الأنعام هي فقط ثمانية أزواج أنزلت إلينا إنزالا، وهي حيوانات مملوكة لا يجوز الاعتداء عليها بالصيد، بينما النعم –بالمقابل- هي حيوانات البر والبحر التي تكون هدفاً للصيد لأنها غير مملوكة ملكية فردية. وحاولنا التمييز بين صيد البحر وطعامه من جهة وصيد البر من جهة أخرى وانعكاسات هذه الافتراءات التي نقدمها من عند أنفسنا على الحاج المحرم.

وفي الجزء الثالث والأخير تعرضنا لقضية الطير، فحاولنا التميز بين الطير الذي يطير بجناحيه، والذي هو أمم أمثالنا، والطير الذي لا يطير بجناحيه وإنما يسعى على الأرض، وزعمنا القول بأنه في حين أن النوع الأول أمم أمثالنا فهو مسخر لنا، لكن لا يحق لنا أن نعتدي عليه بالأكل، ولكن الطير الذي يسعى على الأرض فهو ليس أمم أمثالنا، وإنما كائنات مذلّلة لنا نستطيع أن نصطادها وننتفع منها بالأكل. هذا والله أعلم.

الدكتور رشيد سليم الجراح
أستاذ مساعد – مركز اللغات
جامعة اليرموك
rsaljarrah@yahoo.com

REFERENCES

Bardovi-Harlig, K. (1983). “Pronouns: When ‘Given’ and ‘New’ Coincide.” In A. Chukerman, M. Marks, & J. F. Richardson (eds.). *Papers from the Nineteenth Regional Meeting*. Chicago: Chicago Linguistic Society.

Birner, B. (1994). “Information Status and Word Order: An Analysis of English Inversion.” *Language*.70 (2): 233-259.

Birner, B. & Gregory W. (1998). *Information Status and Noncanonical Word Order in English*. Amesterdam: John Benjamins Publishing Company.

Carrel, P. L. and Eisterhold J. C. (1983). "Schema Theory and ESL Reading Pedagogy" in *TESOL Quarterly*. 17, 553-573.

Carston, R. (1988). Implicature, Explicature, and Truth-theoretic Semantics. In Kempson, R. (ed.) *Mental Representations: The Interface between Language and Reality*. Cambridge: CUP.

Chafe, W. (2005). The analysis of discourse flow. In D. Schiffrin, D. Tannen, &
H. E. Hamilton (eds.). *The Handbook of Discourse Analysis*. Pp. 674-87. Blackwell
Publishing Ltd.

Chastain, C. (1975). Reference and context. In (K. Gunderson (ed.). Language, Mind, and Knowledge. (Pp. 194-269). Minneapolis: University of Minnesota Press.

Clark, H. (1977). Inferences in comprehension. In D. La-Berge & S. J. Samuels (eds.), Basic processes in reading. Hillsdale, N.J.: Erlbaum.

Donnellan, K. S. (1978). Speaker, reference, description and anaphora. In P. Cole (ed.). Syntax and Semantics (Vol. 9: Pragmatics). Pp. 47-68. New York: New York academic Press.

Farhady, H. (1982). "Measures of Language Proficiency from the Learner's Perspective" in *TESOL Quarterly*. 16, 43-59.

Givón, T. (1983). Topic continuity in discourse: a quantitative cross-language study. Amesterdam and Philadelphia: John Benjamins.

Grice, H. P. (1975). Logic and conversation. In P. Cole & J. Morgan (eds.). *Syntax and Semantics 3: Speech Acts*. (Pp: 41-57). New York: Academic Press. Reprinted in Grice (1989). Studies in the way of words. (Pp: 22-40). Cambridge, MA: Harvard University Press.

Grice, H. P. (1989). *Studies in the ways of words*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

Grimes, J. E. (1975). *The thread of discourse*. Janua Linguarum, series minor, 207. The Hague: Mouton.

Gumperz, J. J. (1992). Contextualization and understanding. In A. Duranti and C. Goodwin (eds.). Pp. 229-52. *Rethinking context: language as an Interactive Phenomenon*. Cambridge: Cambridge University Press.

Gundel, J. et al. (1993). "Cognitive Status and the Form of Referring Expressions in Discourse." *Language*. 66 (4): 742-763

Halliday, M. A. K. and Hasan, R. 1976. *Cohesion in English*. London: Longman.

Halliday, M. A. K. and Hasan, R. 1985. *Language, Context and Text: aspects of language in asocial-semiotic perspective*. Victoria: Deakin University.

Hasan, R. 1984. Coherence and cohesive harmony. In Flood, J. (ed) *Understanding Reading Comprehension*. Delaware: International Reading Association

Kintsch, W. and van Dijk, T. (1978). Toward a model of text comprehension and production. *Psychological Review 85 (5):* 363-392.

Kolaiti, P. (2008). Pragmatics and the Phantasm Called Text: a relevance-theoretic approach to Cohesion (also found at http://www.phon.ucl.ac.uk/publications/WPL/05papers/kolaiti.pdf

Minsky, M. (1975). A framework for representing knowldging. In P. Winston (ed.), *The psychology of computer vision. New York: McGraw-Hill.*

Prince, E. (1981b). "Toward a Taxonomy of Given –New Information." In P.Cole (ed.). *Radical pragmatics*. New York: Academic Press.

Prince, E. (1992). "The ZPG Letter: Subjects, Definiteness, and Information-Status." In W.C. Mann & S. A. Thompson (eds). *Discourse Description.* Amsterdam: John Benjamins Publishing Co.

Reinhart, T. (1983a) *Anaphora and Semantic Interpretation*, Chicago: The University of Chicago Press.

Reinhart, T. (1983b) "Coreference and Bound Anaphora: A Restatement of the Anaphora Questions," *Linguistics and Philosophy* 6, 47–88.

Siddharthan, A. (2004). Syntactic simplification and text cohesion. University of Cambridge. *Technical Report*

Number 597. UCAM-CL-TR-597. ISSN 1476-2986. http://www.cl.cam.ac.uk/techreports/UCAM-CL-TR-597.pdf

Sperber, D. & Wilson, D. (1995 [1986a]). *Relevance: Communication and Cognition.* Blackwell, Oxford and Harvard University Press, Cambridge MA . (Second edition 1995. Blackwell, Oxford.)

Strawson, P. (1950). On referring. *Mind*, 59: 320-44.

Strawson, Peter (1964). Identifying reference and truth values. Theoria, 30: 96-118.

Tannen, D. (1987a). Repetition in conversation: toward a poetics of talk. *Language*, 63: 574-605.

Tannen, D. (1987b). Repetition in conversation as spontaneous formulaicity. *Text*, 7: 215-44.

Tannen, D. (1989). *Talking voices: repetition, dialogue and imagery in conversational discourse*. Cambridge: Cambridge University Press.

Wallace, S. (1982). "Figure and Ground: The Interrelationships of Linguistic Categories." In P. J. Hopper (ed.). *Tense-Aspect: Between Semantics and Pragmatics*. Amesterdam: John Benjamins.

Wilson, D. (1998). Discourse, coherence and relevance: a reply to Rachel Giora. *Journal of Pragmatics* 29, 57-74.